

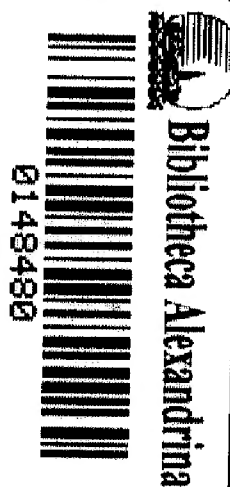
طه حسين



حقة الشوك



دار المعارف



جَنَّةُ الشَّوْكَ

طه حسين

جَنَّةُ الشَّوْكَ

الطبعة الحادية عشرة



دارالمعارف

« لَا يَرَانِي اللَّهُ أَرْعَى رَوْضَةً
سَهْلَةً الْأَكْنَافِ مَنْ شَاءَ رَعَاهَا »

موفق الدين الأربلي

« إِنِّي أَبْغَضُ الشَّعَرَ الْيَسِيرَ ، وَأَكْرَهُ الطَّرِيقَ الْمَطْرُوقَةَ الَّتِي يَسْلُكُهَا
كُلُّ إِنْسَانٍ ، وَلَا أَشْرَبُ مِنَ الْحَوْضِ الْمَبَاحِ ، وَأَعَافُ مَا تَبْتَذِلُهُ الدِّهْمَاءُ »
كَلْبِيَاك

تقدمة

هذا لون من ألوان القول لم يطرقه أدباؤنا المعاصرون ؛ لأنهم لم يلتفتوا إليه ، أو لأنهم لم يحفلوا به ، مع أنه من أشد فنون القول ملاءمة لهذا العصر الذى نعيش فيه . فنحن نعيش فى عصر انتقال كما يقال لنا منذ أخذنا نعرف الحياة . وعصور الانتقال تمتاز بما يكثر فيها من اضطراب الرأى واختلاط الأمر وانحراف السيرة الفردية والاجتماعية عن المألوف من مناهج الحياة . وهذا كله يدفع إلى النقد ، ويحمل على العناية بإصلاح الفاسد وتقويم المعوج والدلالة على الخير ليقصد إليه ، وعلى الشر لتتنكب سبيله ، وإظهار ما يحسن وما لا يحسن فى صور قوية أخاذة ، عميقة الأثر فى النفوس ، شديدة الاستهواء للذوق ، عظيمة الحظ من ملاءمة الطبع .

ونحن نعيش فى عصر ما زلنا نسمع أنه عصر السرعة ، يقصر فيه الوقت مهما يكن طويلا عما نحتاج إلى أن نهض به من الأعباء التى لم تكثر ولم تثقل على الناس فى عصر من العصور كما تكثر وتثقل وتتوسع وتزدحم فى هذه الأيام . وهذا كله يحمل على أن نؤثر الإيجاز على الإطناب ونقصد إلى ما يلائم وقتنا القصير وعملنا الكثير وهذه اللحظات التى يتاح لنا فيها شئ من الفراغ للاستمتاع بلذات الأدب الخالص والفن الرفيع .

وليس من شك فى أن حياتنا الحديثة قد وجدت من أدبنا الحديث مرآة صادقة تصورها أحسن التصوير وأدقه وأعظمه حظاً من إمتاع العقل

وإرضاء الذوق وملاءمة الطبع . فقد عرفنا المقالة منذ أواخر القرن الماضي ، وعرفنا أنواعها المختلفة وفنونها المتباينة ومحاولاتها الناجحة لتصوير ما نحتاج إلى أن يصوّر لنا من ضروب الحياة التي نحيّاها ، ناقدة مرة ومقرّظة مرة أخرى ، معلّمة مرة ومعنية بالإمتاع الفني مرة أخرى ، متناولة للسياسة على اختلاف ألوانها ، وللحياة الاجتماعية على تباين أشكالها ، وللحياة العقلية على تنوع فروعها .

ثم عرفنا القصة التي تقصد تارة إلى الأدب الخالص ، وتارة إلى تصوير الحياة المصرية أو الحياة الإنسانية بوجه عام . وعرفنا الكتب التي يهجم أصحابها فيها على ضرب من ضروب الحياة ينقدونه نقداً مباشراً ، أو على لون من ألوان الحياة يحبونه إلى الناس ويدعونهم إليه ، أو على مسألة من مسائل العلم ، أو قضية من قضايا الفلسفة ، أو مذهب من مذاهب الأخلاق ، أو اتجاه من اتجاهات الفن والأدب . كل ذلك وأكثر من ذلك قد ظهر به أدبنا الحديث ، وانتهى منه إلى حظ لا بأس به . ولكنه مهما يبلغ من الرقي ومهما يعظم حظه من التنوع والاختلاف والخصب فلن يغنى عن هذا الفن الجديد القديم الذي ينقد في سرعة وخفة ودقة وإيجاز ، ويحاول مع هذا كله أن يكون كلاماً مختاراً يروق بلفظه ومعناه كما يروق بصيغته وأسلوبه ، ويصلح من أجل هذا كله لأن يكون أدباً يجد القارئ فيه ما يحب أن يجد في الأدب من لذة العقل والذوق والقلب والأذن واللسان جميعاً .

وقد قلت إن هذا الفن جديد قديم . ولا بد من أن أفسر هذه العبارة التي تظهر متناقضة ، وهي على ذلك صادقة كل الصدق ملائمة كل

الملاءمة لحقائق التاريخ الأدبي العام من جهة ، ولحقائق التاريخ الأدبي العربى من جهة أخرى . وأول حقيقة يجب تقريرها هى أن هذا الفن كغيره من فنون القول قد نشأ منظوماً لا منشوراً ؛ فهو منذ نشأته الأولى فى الأدب اليونانى مذهب من مذاهب الشعر ولون من ألوانه ، نشأ يسيراً ضئيلاً ، ثم أخذ أمره يعظم شيئاً فشيئاً حتى سيطر أو كاد يسيطر على الأدب اليونانى فى الإسكندرية وغيرها من الحواضر اليونانية ، فى العصر الذى تلا فتوح الإسكندر . وقد نشأ كذلك فى الأدب اللاتينى ضئيلاً يسيراً ، حتى إذا اتصل الأدباء اللاتينيون بالأدب اليونانى عامة والأدب الإسكندرى خاصة ، ترجموا ثم قلدوا ثم برعوا ، حتى أصبح هذا الفن من فنون الشعر اللاتينى ممتازاً أشد الامتياز وأعظمه فى القرنين الأول والثانى للمسيح ، أى فى العصر المجيد من عصور الإمبراطورية الرومانية .

أما فى أدبنا العربى فقد تأخرت نشأته شيئاً ما ؛ فلم يكده يعرفه الأدب الجاهلى ، أو نحن لا نعرف من الأدب الجاهلى ما يمكننا من أن نقطع بأن الشعراء الجاهليين قد حاولوه أو قصدوا إليه . ولم يعرفه الأدب الإسلامى (١) وأكبر الظن أن الشعراء الإسلاميين لم يعرفوه ؛ لأنهم لم يرثوه عن الفحول الجاهليين ، ولأنهم لم يشهدوا حياة متحضرة مترفة كالتى عرفها شعراء الإسكندرية وشعراء روما ، وإنما عرفوا حياة قد اتصلت بالحضارة ولكنها لم تبرأ من البداوة ، وقد حفظت تراثاً قديماً ضخماً ومذهباً فى الشعر مألوفاً ، أنخص ما يمتاز به طول النفس حتى يودى الشاعر ما يحتاج إلى تأديته فى أناة ومهل لا تمتاز بالقصر ولا بالاختصار .

(١) وقد يروى شىء منه بين الفرزدق وعبد الله بن الزبير مثلاً .

فلما كان العصر الثاني من عصور الحضارة الإسلامية ، أزهـر في العراق هذا الأدب العباسي الجديد ، وظهر هذا الفن في الأدب العربي قوياً خصباً مختلفاً ألوانه في البصرة والكوفة وبغداد . ولكن حياته لم تطل ، وإنما اقتضت ظروف السياسة والأدب أن يعدل الشعراء الفحول عنه عدولاً يوشك أن يكون تاماً ، وأن يستخفى به بعض الشعراء وبعض الكتاب ، بل بعض الذين لا تعرف لهم سابقة في الشعر ولا في النثر لأسباب قد أبينها في غير هذا الحديث .

ثم كانت عصور الضعف الأدبي ، فذهب هذا الفن من فنون القول فيما ذهب ، واستؤنفت في عصرنا الحديث حياة أدبية تقليدية غنى فيها أدباؤنا بعمود الشعر ، ولم يخالفوا عن سنة الفحول من الجاهليين والإسلاميين والمحدثين ، فلم يحفلوا بهذا الفن الذي لم يزدهر في تاريخ الشعر العربي إلا وقتاً قصيراً . وقد نقلت الآداب اليونانية واللاتينية إلى اللغات الأوروبية في العصر الحديث ، فقلد الشعراء الأوروبيون في هذا الفن كما قلدوا في غيره من الفنون ، ثم ابتكروا فيه كما ابتكروا في غيره من الفنون ، حتى أغنوا آدابهم منه بألوان رائعة . ولكن النهضة الشعرية التي دفع الأوروبيون إليها منذ أواخر القرن الثامن عشر صرقتهم عنه إلى مذاهب أخرى من الشعر صرفاً يوشك أن يكون تاماً .

فأنت ترى من هذه الخلاصة القصيرة القاصرة أننا بإزاء فن من فنون الشعر عرفته الآداب الكبرى القديمة والحديثة ، وسبق إليه اليونان كما سبقوا إلى غيره من فنون الشعر والنثر . فإذا كان في هذا اللون الذي يعرض عليك في هذا الكتاب من ألوان الكلام شيء جديد فهو أنه يعرض عليك

نثراً لا شعراً ، لأن الذى يقدم إليك هذا الكتاب لم يتح له قرض الشعر من ناحية ، ولأنه كغيره من الكتاب القدماء فى الأدب العربى لا يكره أن يزاحم الشعراء على فنون الشعر ، وأن يوسع ميدان النثر على حسابهم بين حين وحين . وقديماً طرق الكتاب فى البصرة وبغداد وغيرهما من الحواضر الإسلامية فنوناً كان الشعراء يحتكرونها لأنفسهم ، فلم يمنعهم ذلك من أن يجيدوا التقليد ، ثم لم يمنعهم ذلك من أن يجيدوا الابتكار ، ثم لم يمنعهم ذلك من أن يكونوا أئمة يذهب الشعراء فى الشعر مذهبهم فى النثر . وما أظن أن حلّ المنظوم ونظم المنشور يدلان على شيء غير هذا الذى أشرت إليه . ولكن من حقلك أن تسألنى عن هذا الفن الغريب الذى أطلت القول فى تاريخه دون أن أبين لك حقيقته وأعرض عليك خصائصه ، وأفرق لك بينه وبين غيره من فنون الشعر . وليس المهم هو أنى أحسنت ابتغاء الوسيلة إلى نفسك أو لم أحسنه حين بدأت بهذا الكلام الكثير عن فن لم أبين لك عن حقيقته ولا عن خصائصه ، وإنما المهم هو أن أكشف لك عن هذه الحقيقة ، وأعرض عليك هذه الخصائص ، لنستطيع أن نمضى معاً على شيء من البصيرة والثقة فيما نستأنف من القول .

ويجب أن أعترف بأنى لا أعرف لهذا الفن من الشعر فى لغتنا العربية اسماً واضحاً متفقاً عليه ، وإنما أعرف له اسمه الأوروبى ؛ فقد سماه اليونانيون واللاتينيون « إبيجراما » أى نقشاً ، واشتقوا هذا الاسم اشتقاقاً يسيراً قريباً من أن هذا الفن قد نشأ منقوشاً على الأحجار ؛ فقد كان القدماء ينقشون على قبور الموتى وفى معابد الآلهة وعلى التماثيل والآنية والأدابة البيت أو الأبيات من الشعر ، يؤدون فيها غرضاً قريباً أول الأمر ، ثم أخذ هذا الفن

يعظم ويتعقد أمره ، حتى نأى عن الأحجار ، واستطاع أن يعيش في
الذاكرة وعلى أطراف الألسنة ، ثم استطاع أن يعيش على أسلالت الأقلام
وفي بطون الكتب والدواوين . وقد أطلق اليونانيون واللاتينيون كلمة
« إبيجراما » أول الأمر على هذا الشعر القصير الذى كان ينقش على
الأحجار ، ثم على كل شعر قصير ، ثم على الشعر القصير الذى كانت
تصور فيه عاطفة من عواطف الحب أو نزعة من نزعات المدح ، أو نزعة
من نزعات الهجاء . ثم غلب الهجاء على هذا الفن ، ولا سيما عند الإسكندرانيين
وشعراء روما وإن لم يخلص من الغزل والمدح . فلما كان العصر الحديث
لم يكن الشعراء الأوربيون يطلقون هذا الاسم إلا على الشعر القصير الذى
يقصد به إلى النقد والهجاء .

أما أدبنا العربى فإنه لم يحفل بأن يلتبس لهذا الفن اسماً خاصاً ، وإنما
هو يقسم الشعر من حيث الطول والقصير إلى القصيدة والمقطوعة . وهو
يطلق اسم القصيدة على الشعر الذى تتجاوز أبياته السبعة عند بعض النقاد
والعشرة عند بعضهم الآخر ، ويطلق اسم المقطوعة على الأبيات التى
لا تتجاوز السبعة أو العشرة . ومثل هذا يقال فى الرجز ؛ فالأرجوزة هى
التى تزيد على سبعة أبيات أو عشرة أبيات ، والمقطوعة هى التى لا تزيد
على هذا العدد أو ذاك . وواضح أن كلمة المقطوعة يمكن أن تدل على كل
شعر لم يزد على هذا العدد أو ذاك مهما يكن موضوعه ، ومهما يكن مذهب
الشاعر فيه ؛ فهى لا تدل على هذا المعنى المحدود كما تدل كلمة « إبيجراما »
عليه عند اليونانيين واللاتينيين والفرنجة . ولكن هذا لا يمنع أن هذا الفن
قد وجد فى أدبنا العربى وجوداً قوياً بعيد الأثر عظيم الخطر ، على النحو

الذى وجد عليه فى الإسكندرية وروما وفى الحواضر الأوربية فى العصر الحديث .
 وأول ما يمتاز به هذا الفن أنه شعر قصير ، فإذا طال فهو قصيدة فى
 الغزل وفى المدح أو الهجاء . فالقصر إذاً خصلة مقومة لهذا الفن . ثم يمتاز
 بعد هذا القصر بالتأنق الشديد فى اختيار ألفاظه بحيث ترتفع عن الألفاظ
 المبتذلة دون أن تبلغ رصانة اللفظ الذى يقصد إليه الشعراء الفحول فى
 القصائد الكبرى ، وإنما هو شئ بين ذلك لا يبتذل حتى يفهمه الناس
 جميعاً فترهد فيه الخاصة ، ولا يرتفع حتى لا يفهمه إلا المثقفون الممتازون
 والذين يألون لغة الفحول من الشعراء .

ومصدر ذلك أن هذا الفن إنما ازدهر وعظم خطره فى عصور الحضارة
 المتقدمة التى تدعو إلى التأنق وتدفع إلى التكلف ، وتباعد بين الناس وبين
 عصور البداوة وآدابها الجزلة التى تبهر وتروع ، ولكن ذوقها يختص به
 المثقفون الممتازون دون هذه العامة التى تحيا حياة مبتذلة وتصورها تصويراً
 مبتذلاً . والواقع أن الشعراء الذين عنوا بهذا الفن عناية خاصة ، فوضعوا له
 أصوله وقوانينه قد كانوا من شعراء القصور فى الإسكندرية وروما وفى كثير
 من الحواضر الأوربية . وقد كانوا من الشعراء المتصلين بالقصور اتصالاً
 قوياً أو ضعيفاً فى العصر العباسى الأول . فالشاعر اليونانى المبرز فى هذا
 الفن « كليماك » قد كان شاعر القصر فى الإسكندرية أيام بطليموس
 الثانى ، والشاعر اللاتينى المبرز فى هذا الفن « مارسىال » قد كان شاعر
 القصر فى روما أيام الإمبراطور « دوميسيانوس » والشعراء العرب الذين
 عنوا بهذا الفن فى البصرة والكوفة وبغداد قد كانوا يتصلون بقصور الخلفاء
 والأمراء والوزراء فى هذه الحواضر الثلاث من عواصم الإسلام . فليس

غريباً أن يتأثر هؤلاء الشعراء بهذه الحياة الناعمة المترفة التي تكون في القصور ، وليس غريباً أن يلائموا بين ما يختارون لمعانيهم من الألفاظ وبين ما في هذه الحياة المترفة من التأنق والتكلف والامتياز . وليس معنى هذا أن الألفاظ التي تختار لهذا الشعر يجب أن يبعد بها التأنق كل البعد عن الابتذال أو ينأى بها كل النأى عن جزالة الفحول ، وإنما معناه أن الشاعر يجب ألا يلجأ إلى الألفاظ المبتذلة المسرفة في الابتذال أو الرصينة المغرقة في الرصانة إلا حين يدعو الفن إلى ذلك ويضطره إليه اضطراراً .

ثم يمتاز هذا الفن بعد هاتين الخصلتين ، أو قل إن شئت قبل هاتين الخصلتين ، بخصلة ثالثة تتصل بالمعنى ، وهي أن يكون هذا المعنى أثراً من آثار العقل والإرادة والقلب جميعاً . فليس هو شعراً عاطفياً يصدر عن القلب أو يفيض به الطبع ، وليس هو شعراً يصنعه العقل وحده ، وإنما هو مزاج من ذلك يسيطر الذوق عليه قبل كل شيء . أثر العقل فيه أنه نقد لاذع ، أو هجاء ممض ، أو تصوير دقيق لشيء يكره أو يحب . وهذا كله يحتاج إلى بحث وتفكر وإلى روية وتأمل ، ولا يأتي مستجيباً لعاطفة من العواطف أو هوى من الأهواء . وأثر الإرادة فيه أنه لا يأتي عفو الخاطر ولا فيض القريحة ، وإنما يقصد الشاعر إلى عمله وإنشائه ، ويستعد لتجويده والتأنق فيه . وأثر القلب فيه يفيض عليه شيئاً من حرارته وحياته ، ويمجرى فيه روحاً من قوته التي يجدها عندما يقبل على الخير أو عندما ينفر من الشر ، عندما يرضى ، وعندما يسخط . فالمعنى في هذا الشعر يجب أن يكون قوياً حتى حين يظهر فيه الابتذال . وكل هذا لا يأتي إذا صح التعاون بين القلب والإرادة والعقل والذوق على هذا الإنشاء .

ثم يمتاز هذا الفن بخصلة أخرى لا أدرى كيف أصورها ، ولكن سأحاول ذلك كما أستطيع ، وهي أن تكون المقطوعة منه أشبه شيء بالنصل المرفف الرقيق ذى الطرف الضئيل الحادّ قد ركب في سهم رشيق خفيف لا يكاد يتزعّج عن القوس حتى يبلغ الرّمية ثم ينفذ منها في خفة وسرعة ورشاقة لا تكاد تحسّ . ومن هنا امتاز هذا الفن بالبيت الأخير أو البيت الأخيرين من المقطوعة ، فهما يقومان منها مقام الطرف الضئيل النحيل الرقيق الرشيق من نصل السهم . فإذا كانت المقطوعة بطيئة الحركة ثقيلة الوزن فليست من هذا الفن في شيء . وإذا أردت أن تلمس لهذا الفن صوراً شعرية تحقق هذه الخصال كلها في أدبنا العربي فاعمد إلى شعر بشار وحماد ومطيع وأصحابهم في البصرة والكوفة وبغداد ، فستجد من ذلك أكثر مما تريد وأكثر مما تحب .

وهنا أصل إلى الخصلة الأخيرة التي شاعت في هذا الفن عند القدماء من اليونانيين واللاتينيين والعرب ، وإن لم تكن شاملة ولم تبلغ أن تصير قانوناً من قوانين الفن ، وهي هذه الحرية المطلقة التي يتجاوز بها أصحابها حدود المألوف من السنن والعادات والتقاليد ، والتي تدفع أصحابها إلى الإفحاش في اللفظ ، وإلى الإفحاش في المعنى ، وإلى التحرر مما يفرضه الذوق النقي على الرجل الكريم حين يتحدث إلى الناس أو حين يتحدث عن الناس . وأنت واجد من هذا شيئاً كثيراً عند بشار وأصحابه في البصرة والكوفة وبغداد ، كما أنك واجد منه شيئاً كثيراً عند « كلبك » و « مارسيال » وأصحابهما من شعراء الإسكندرية وروما . ولعلك تجد شيئاً من هذا عند بعض الشعراء المحدثين قبل الثورة الفرنسية في إيطاليا وفرنسا ، ولكنه قليل

بالقياس إلى ما تجده عند القدماء .

من هذا كله تتبين حقيقة هذا الفن وخصائصه ، وتتبين بنوع خاص أنه لون من ألوان الشعر الهجائي ، يقصدُ به إلى القِصَر والخفة والحدة ليكون سريع الانتقال ، يسير الحفظ ، كثير الدوران على ألسنة الناس ، يسير الاستجابة إذا دعاه المتحدث في بعض الحديث ، أو الكاتب في بعض ما يكتب ، أو المحاضر في بعض ما يحاضر ، ثم ليكون مضحكاً للسامعين والقارئین بما فيه من عناصر الخفة والحدة والمفاجأة ، ثم ليكون بالغ الأثر آخر الأمر في نفوس الأفراد والجماعات ، يدفعهم إلى ما يريد أن يدفعهم إليه من الخير ، ويردهم عما يريد أن يردهم عنه من الشر في غير مشقة ظاهرة أو جهد عنيف .

وليس من شك في أنك قد ارتعت حين بلغت هذا الموضع من هذا الحديث . قد ارتعت من جهة ، وثار في نفسك حب الاستطلاع من جهة أخرى . فأنا أصور لك فناً من فنون النقد اللاذع والهجاء الممض الذي هو أشبه بالسهام التي لا تنزع عن القوس إلا أضمت وأردت من تصيب . وأنا أصور لك فناً من فنون الهجاء لا يتورع أصحابه عن فاحش اللفظ وقبيح المعنى وسيئ الرأي في الحياة والأحياء . وأنا أقدم لك هذا التصوير بين يدي كلام أزعج أن بينه وبين هذا الفن صلة . فأنت مشفق مرتاع ، تسأل نفسك إلام أريد بهذا الكتاب ؟ وما هذه السهام الرقيقة الرشيدة المسمومة المسمومة التي أرسلها ؟ وإلى من أريد أن أرسلها ؟ كل هذه الأسئلة تخطر لك فتثير في نفسك روعاً وإشفاقاً ، وتثير في نفسك شوقاً إلى المعرفة وكلفاً بالاستطلاع . فلا تشفق ولا ترتع ، ولا تمن نفسك الأمان ولا تتخذهما

بالغرور ، فليس في هذا الكتاب هجاء وقد انقضى عصر الهجاء منذ زمن طويل . وليس في هذا الكتاب سهام مسمومة أو مسمومة فقد انقضى عصر التراشق بالسهام منذ عهد بعيد . ولست أريد بهذا الكتاب إلى أحد ؛ فإني لا أعرف من أمر الذين ألفتهم من قريب أو من بعيد إلا خيراً .

ولست أريد بهذا الكتاب إلى شيء إلا النقد الذي يسمونه بريئاً في هذه الأيام ، والنقد الذي يوجه إلى ألوان من الحياة لا إلى أفراد بأعينهم من الناس . ومن المحقق أني لم أخترع هذا الكلام من لا شيء ، ولم أشتق هذه الصور من الهواء ، ولم ألتبسها في الصين ولا في اليابان ولا في بلاد الهند والسند ، وإنما أنا أعيش في مصر ، وأشارك المصريين في الحياة التي يحيونها ، وأخذ بحظي مما في هذه الحياة مما يرضى وما يسخط . وأنا بعد ذلك أعرف أقطاراً من الأرض سافرت إليها وأقمت فيها أو قرأت عنها في الكتب والأسفار . وأنا بعد هذا وذاك أعرف أجيالا من الناس عشت بينهم أو قرأت أخبارهم وعرفت آثارهم فيما استطعت أن أظهر عليه من آثار الناس في الشرق والغرب ، وفي الشمال والجنوب . ولست أزعم كما زعم أبو العلاء أني أعرف الناس جميعاً ، وأنى قد تلوت أجيال الناس جميعاً ؛ فقد كان أبو العلاء غالياً حين قال :

ما مرّ في هذه الدنيا بنو زمن إلا وعندي من أنبائهم طرفٌ
وأنا واثق كل الثقة بأن كثيراً من أبناء الزمان قد مروا في هذه الدنيا
وليس عندي من أنبائهم طرف طويل أو قصير ، ولكني واثق بأنى عرفت
الناس ، وبلوت أخبارهم وآثارهم إلى حد ما ، وتأثرت بما بلوت من ذلك ،
فسخّطت حيناً ورضيت أحياناً ، وأظهرت ما وجدت من السخط والرضا

في صراحة واضحة تغني عن التلميح الغامض .

ثم أنا أثق بعد هذا بأن ما يقال في نقد الناس وحمدهم إنما هو أشبه بالمرايا ، يرى الناس فيها أنفسهم ؛ لأننا لا ننقد عفاريت الجن ، ولا نحمد الملائكة الأبرار ، وإنما ننقد ونحمد ما نرى وما نعلم من أعمال الناس وآثارهم .

فأنا صادق حين أقول إنك لن تجد في هذا الكتاب هجاء لاذعاً ، ولا نقداً ممضاً . وأنا صادق حين أقول إنك ستجد في هذا الكتاب مرايا يمكن أن ترى الناس فيها أنفسهم . وليس عليهم ولا على من ذلك بأس ؛ فما أكثر ما نرى أنفسنا في كثير مما نقرأ من آداب القدماء والمحدثين مهما تكن اللغات والعصور والظروف والبيئات التي تنشأ فيها هذه الآداب .

وأنت بعد هذا كله مضطر إلى أن تخفف من شوقك إلى المعرفة وكلفك بالاستطلاع ؛ فإني لا أريد أن أعلمك شيئاً ، ولن تتعلم من هذا الكتاب شيئاً ، وإنما هو كلام ستقرؤه فترضى عنه أو تسخط عليه من الناحية الفنية الخالصة لا أكثر ولا أقل .

وواضح أني لم أذهب مذهب القدماء في الاندفاع مع الحرية الجامحة ؛ فالأدب العربي الحديث أكرم على وآثر عندي ، وأنت وأنا أكرم على نفسي من أن أذهب هذا المذهب الذي قدمضي مع أصحابه القدماء . وإذا أردت أن تعرف الحق الصريح من أمر هذا الكتاب فإني منبئك به في سداجة يسيرة لا تكلفك مشقة ولا جهداً ؛ لأنني أنا لم أتكلف في هذا الكلام مشقة ولا جهداً . فأنا رجل أحب القراءة ، وأحب القراءة المختلفة المتنوعة : أقرأ في الأدب العربي القديم والحديث ، وأقرأ في الآداب

الأوربية القديمة والحديثة ؛ وأجد في هذه القراءة متعة تكسب الحياة قيمة خاصة . ولكن قد أقف عند هذا الفن أو ذلك من فنون الأدب وقفة خاصة ، فأسأل نفسي : أيوجد هذا الفن في اللغة العربية أم لا يوجد ؟ أو أسأل نفسي . أتستجيب اللغة العربية لهذا الفن إن دعيت إليه أم لا تستجيب ؟ ثم أسأل نفسي : أقادر أنا على أن ألائم بين هذا الفن وبين اللغة العربية أم غير قادر ؟ ولا أكاد ألقى على نفسي هذا السؤال الأخير حتى أطلب إلى صاحبي أن يأخذ القلم والقرطاس ، ثم آخذ في الإملاء ويأخذ هو في الكتابة . فأما إن أحسست شيئاً من التوفيق إلى ما أردت فأنا ماضٍ في المحاولة حتى أنتهي بها إلى بعض غايتها ، ثم أذيع ذلك في الناس ليقروا وليرضوا وليسخطوا ، وليقلد منهم المقلد ، وليعرض منهم المعرض . وأما إن أحسست عجزاً عن هذه الملاءمة فأنا أجدد المحاولة مرة ومرة حتى إذا استيأست أعرضت عن الإملاء وأعرض صاحبي عن القلم والقرطاس . والذين يقرءون ما أذعت في الناس من الكتب منذ أكثر من ربع قرن يستطيعون أن يروا ذلك في كثير مما أذعت فيهم . وأن يتبينوا في وضوح وجلاء أني أستجيب حين أكتب - وحين أكتب في الأدب خاصة - لشيئين اثنين : أحدهما ما أرى من رأى أو أجد من عاطفة وشعور . والآخر امتحان قدرة اللغة العربية على أن تقبل فنوناً من الأدب لم يطرقها القدماء ، وامتحان قدرتي أنا على أن أكون الصلة بين اللغة العربية وبين هذه الفنون والآداب . وقد قرأت فيما قرأت كثيراً من شعر القدماء والمحدثين في اللغة العربية وفي غيرها من اللغات التي أستطيع أن أفهمها . وأعجبنى هذا الفن من فنون النقد والهجاء . ورأيت أن العرب قد أخذوا بحظ منه في القرن الثاني فأجادوا ،

ولكنهم لم يكادوا يتجاوزون هجاء الأشخاص وهذا العبث الذى كان القدماء يالفونه وبتهاكون عليه . ثم رأيت أن هذا الفن قد ذوى زهره وغاض مأؤه حين انقضى العصر العباسى الأول ، وأن الشعراء الفحول قد عادوا إلى الهجاء الطويل ، واستأنفوا مذهب القدماء من أعلام الجاهلية والإسلام .

ولم أكن صاحب شعر ولا قدرة على النظم فلم أحاول إذاً أن أردّ لهذا الفن حياته كما ألفها أيام بشار وأصحابه . ولكن ما يمنعنى أن أذهب فى هذا الفن مذهب القدماء على أن أتخذ النثر أداة مكان الشعر ؟ !

فلنجرب إذاً ، ولنمتحن أنفسنا ، ولنمتحن لغتنا ، ولنمتحن ذوق القراء . وقد جربت وأذعت مقطوعات قليلة لا تبلغ الست أو السبع فى الأهرام . فرضى الناس وسخطوا ، وأثنوا وعابوا . ولست أريد من الإنتاج الأدبى إلى أن أذوق الرضا والسخط جميعاً . وإذاً فلنمض فى التجربة ، وقد مضيت . وهأنذا أقدم إليك مائة ونصف مائة من هذه المقطوعات . فاقراً إن شئت ، وارضى إن أثارت القراءة فى نفسك الرضا ، واسخط إن أثارت القراءة فى نفسك السخط ، وأنا أعفيك من الثناء والتقريظ مخلصاً ، وأبيح لك النقد والعيب مخلصاً أيضاً ، وأتمنى أن يتاح للشباب من القراء أن يحاولوا من ذلك مثل ما حاولت ، ويبلغوا من ذلك أكثر مما بلغت . فالله يشهد ما كتبت ولا خطبت ولا حاضرت إلا وفى نفسى أمنية هى أن أدفع الشباب إلى أن يعلموا ويعملوا وينتجوا ، ويتاح لهم أكثر مما أتيح لى من النجاح والتوفيق .

دعاء

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : علّمني كلمات أتّجه بهنّ إلى الله في أعقاب الصلوات الخمس ؛ فإنني أجد في نفسي حاجةً إلى الدعاء في هذه الأيام الشّداد .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : سل الله يا بُنَيَّ أن يعصمكَ من صغر النفس الذي تضخمُ له الأجسام ، ومن ضيق العقل الذي تتسع له البطون ، ومن قصّر الأمل الذي تمتدّ له أسباب الغرور .

وكنت حاضر هذا الحديث بين الأستاذ الشيخ والطالب الفتي ، فقلت في نفسي : ما أجدرَ الشبابَ المصريين أن يتَّخذوا من هذا الدعاء لأنفسهم برنامجاً وشعاراً !

فيض

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : فسّر لي قولَ القائل « فاض الإناء » .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هذا مجازٌ يا بُنَيَّ في كلّ أمر تجاوزَ حدّه حتى أصبح لا يطاق . ألم تسمع قول الشاعر :
شكوتُ وما الشكوى لمثلَى عادةً
ولكن تفيضُ النفسُ عند امتلائها

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : فإنى أعرف أوعية لا تمتلئ ، وآنية لا تفيض .

قال الأستاذ الشيخ مبتسماً : وما ذاك ؟

قال الطالب الفتي : خزائن الأغنياء التى مهما يُصَبَّ فيها من المال فهى ناقصة ، وجهنم التى يقال لها : هل امتلأت ؟ فتقول : هل من مزيد ؟ وعقول العلماء التى لا تبلغ حظاً من المعرفة إلا طمعت فى أكثر منه .

قال الأستاذ الشيخ ضاحكاً : لقد أصبحت حكماً منذ اليوم ، ولكن تعلم أن إناءً واحداً قد يفيض ، فيصبح مضرباً للأمثال ، ومصدراً للعب ، وبعيد الأثر فى حياة الأجيال . ألا تذكر سيل العرم ؟ !

حرية

قال أحد أمراء الموصل ، وكان أريباً ، لأحد ندمائه وكان أديباً : « ما شر ما يمتحن به الأديب ؟ » .

قال النديم وهو يتسم : « فقْدانُ الذوق الذى يجعل أدبه فاتراً خيراً منه البارد » . وأطرق النديم لحظة ثم قال للأمير : « وما شر ما يمتحن به صاحب السلطان ؟ »

قال الأمير وقد ظهر فى وجهه العبوس : « ثناء الذين لا يحسنون الثناء ، يقولون فينا فلا يصدقهم أحد ، ويقولون فينا فلا نصدقهم نحن . لأنهم يقولون فينا وهم لا يصدقون أنفسهم » . قال أحد الجلساء : « فما

يمنعكما أن تحظرا على الأديب الذى لا ذوق له أن يحدث أدباً ، وعلى
المادح الذى لا فن له أن يحدث مدحاً ؟ ! »
قال الأمير وعلى ثغره ابتسامة خير منها العبوس : « فإن الحرية تأمرنا
أن نخلى بين الناس وبين ما يقولون من الجد والهراء » .

حرية

قال الطالب الفقى لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى فلان وُلدَ حراً وشبَّ حراً ،
وشاخ حراً ، فلما دنا من الهرم آثر الرقّ فيما بقى من الأيام على الحرية التى
صحبها فى أكثر العمر ؟ !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقى . أضعفته السن فلم يستطع أن يحتمل
الشيخوخة والحرية معاً ، وأنت تعلم أن الحرية تحمل الأحرار أعباءً
ثقلاً .

أدب

قال الطالب الفقى لأستاذه الشيخ : أليس قد أدبنا الإسلام بأن نجلس
بحيث ينتهى بنا المجلس ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقى : بلى ! ولكن إذا انتهى بك المجلس إلى
حيث تجاور من لا تحب أن يعرف السلطان أنك جاورته ، فلا عليك أن
تتخطى رقاب الناس وتجلس حيث تأمن الغضب ولا تتعرض للائمة . وقد
أدبنا الحياة بأن الضرورات تبيح المحظورات .

حرية

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما بال فلان يُظهر سيرة الأحرار ويخفى سيرة العبيد ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ذلكَ أحرى أن يُظهره على دخائل الأحرار لينقلها إلى سادته .

حرية

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما بال فلان يرى آراء المسرفين من أهل الشمال ، ويسير سيرة المسرفين من أهل اليمين ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لأن له عقلَ الحرِّ وأخلاق العبيد .

وصول

لم يكن شيئاً ثم ارتقى حتى أصبح شيئاً مذكوراً . وقد سلك في تصعيده من الحضيض إلى القمة طريقاً وعرةً ملتويةً ، يغمرها ضوء الشمس المشرقة المُحرقة أحياناً ، وتنظر إليها الشمس من وراء نقاب من السحاب أحياناً أخرى ، ويحجبها ظلامٌ قاتمٌ فاحمٌ في كثير من أجزائها . فلما ارتقى إلى القمة واطمأن في مكانه منها ، نسى ماضيه كله ، وأعرض عن مستقبله كله ،

وعاش ليومه الذى هو فيه .

نسى الماضى ، فلم يتعظ ، وأعرض عن المستقبل ، فلم يتحفظ ؛ ومضى مع هواه طاغياً باغياً ، حتى أخاف الناس من نفسه ، وأخاف نفسه من الناس ؛ فلم يأمن إلى أحد ، ولم يأمن إليه أحد . وإذا هو مضطر إلى أن يظهر الحبّ لقوم يبغضهم أشدّ البغض ، وإذا الناس من حوله مضطرون إلى أن يظهروا له حباً متهاكاً ويضمروا له بغضاً مهلكاً ، وإذا الأسباب بينه وبين الناس تترتّب ، حتى إن أيسر الأمر لينتهى بها إلى الانقطاع .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لقد سمعتُ منك ولكنى لم أفهم عنك ، وإنك لتحدثنى بالألغاز منذ حين ، فماذا تعنى وإلامَ تريد ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إنّ حبّ الاستطلاع إنّ نفع فى بعض الوقت فقد يضرّ فى بعضه الآخر . وما عليك أن تفهم شيئاً وتغيب عنك أشياء ! إنما هى مرآيا تنصبّ للناس ، فليُنظر فيها من يشاء وليعرض عنها من يشاء . وربما كان الإعراض عنها خيراً من النظر فيها ؛ فقد ينظر فيها من يحبّ الاستطلاع مثلك فيسوءه ما يرى لأنه يرى نفسه .

ضمائر

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألا تُحدّثنى عن هذه الضمائر التى تفعل ما تشاء ، ثم تستتر وراء أفعالها ، وجوباً مرة ، وجوازاً مرة أخرى ؛ فهى دانية نائية ، وبادية خافية ، وهى ملحوظة غير ملفوظة ، ومعقولة غير

مقولة : وهى على ذلك تكلف الأساتذة والتلاميذ همًا ثقيلاً ، وعناء طويلاً !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ما أنت وهذه الضمائر البريئة النقية ! إنما هى بنات الوهم ، قد فرضها العلماء رياضةً لعقول الطلاب ، على التحليل والإعراب ، وهى لا تؤذى أحداً من قريب أو بعيد . فإذا علمت علمها ، وذلك يسير ، فدعها وشأنها ، وتحدث عن ضمائر أخرى أشدّ فى حياة الناس خطراً ، وأبعد فى أعمالهم أثراً ، تستخفى فى أعماق النفوس ، عابسة تُشيع الابتسامة المريب ، ومظلمة تنشر الضوء المخيف .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لقد عدت إلى ما دأبت عليه من الألغاز ، فوضح لي بعض ما تقول !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ما تقول فى ضمائر الأطباء حين يعودون المرضى ، وفى ضمائر المرءوسين حين يتلقون أمر الرؤساء ، وفى ضمائر الطلاب حين يسمعون دروس الأساتذة ، وفى ضمائر بعض الأصدقاء حين يسمعون للأصدقاء ؟

وكنتم حاضرين هذا الحديث ، فتلوت قول الله عز وجل :
« وَتَحْسَبُهُمْ آيْقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ ، وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ، وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ، كَوَاطِلٌ عَلَيْهِمْ كَوَلِّتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا » .

جحدود

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : قد سمعنا منك وفهمنا عنك ، وأعجبنا بك ، ولكننا لم نؤمن لما حدثتنا به صباح اليوم ؛ فقد فسرت لنا ما نقرأ في الكتب ، ولم تفسر لنا ما نرى في الحياة .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى في صوت يكاد يبين عن حروف دفين : وما ذاك ؟
قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لقد أنبأتنا ، كما أنبأتنا الكتب ، بأن من قدم إلى الناس خيراً لقي منهم خيراً ، ومن قدم إلى الناس شراً لقي منهم شراً ، وقصصت علينا من كتاب المكافأة في ذلك قصصاً رائعة ، وأخباراً بارعة . ولكننا ننظر فنرى الصنيعة لا تكاد تغرس في قلوب الناس حتى تستحيل إلى شجرة الزقوم ، تلك التي وصفها القرآن الكريم ، بأنها طعام الأثيم ، كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم .

قال الأستاذ الشيخ وعلى وجهه ابتسامة رفيقة رقيقة : فإن هذه الشجرة كما وصفها القرآن الكريم ، تخرج في أصل الجحيم ، وليست قلوب الناس كلهم جحيماً ؛ وإن منها لجنات يستحيل فيها الشر خيراً ، والمساءة إحساناً . فاجعل ما نقوله لك من هذا عزاء عما تقوله لك الحياة ، وقدم الخير غير يائس من أن تجزى عليه بمثله .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فإني أكره أن أتجر بالمعروف ، وأؤثر أن أقدم الخير لا أتمس له جزاء ، وأؤثر إذا لم يكن بد من الجزاء أن أنتظره من الله الذي لا يذهب العرف بينه وبين الناس .

وكننت حاضر هذا الحديث ، فذكرت قول مؤرخ روماني عظيم قلما ينظر فيه الأدباء المعاصرون : « إِنَّ الصنِيعَةَ لَا تَزَالُ مُحْتَفَظَةً بِقِيَمَتِهَا مَا دَامَ شُكْرُهَا يَسِيرًا ، فَإِذَا جَلَتْ عَنِ الشُّكْرِ جَوَزِيَتْ بِالْكَفْرِ وَالْجُحُودِ » .

حمارا رهان

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أَيُّ صَدِيقِكَ شَرٌّ : هذا الذي يَوَادُّكَ حين تستغنى عنه ويحَادُّكَ حين تحتاج إليه ، أم هذا الذي يَكُلُّوكَ حين ترزؤك النعمة ، ويشنؤك حين تفجؤك النعمة ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كلاهما مريض يا بني يحسنُ أن نلتمس له الطبَّ ونقدِّم إليه الدواء . فأما أولهما فعلته الأثرَةُ التي تفسدُ المروءة . وأما ثانيهما فعلته الحَسَدُ الذي يلبسُ ثوبَ الكبرياء .

وكننت حاضر هذا الحديث ، فلم أستطع أن أدافع ضحكاً عريضاً ؛ فنظر الشيخ وتلميذه إلى في شيء من وجوم كأنهما يسألان عن هذا الضحك . فقلت : أذكرتاني قصة العبادي ؛ فقد قيل له : أَيُّ حِمَارِكَ شَرٌّ : هذا الذي يبطئ بك حين تحتاج إلى السرعة . أم هذا الذي يسرع بك حين تحتاج إلى الأناة ؟ فقال : « هذا ثم هذا » .

حلة

همّ أمير الموضّل أن يهدى إلى أحد ندمائه خلعة نفيسة ، ثم غضب عليه لبعض الأمر قبل أن تبلغه الهدية . وكان النديم طويلاً في السماء عريضاً في الفضاء . وقد أراد الأمير أن يغيظه ، فأهدى خلعته إلى نديم آخر له كان قصيراً لا يكاد يرتفع عن الأرض ، وضيقاً لا يكاد يشغل من الفضاء إلا حيزاً ضئيلاً . وتلقى النديم هدية الأمير جذلان راضياً . فلما دخل فيها ضاع بين ثناياها ، لأنها لم تفصل على قدميه . فأما الأمير وحاشيته فضحكوا وأغرقوا في الضحك . وأما النديم فلم يشك في أن الخلعة قد خلقت له . وأما الناس فقد جعلوا كلما رأوه يشيرون إليه ، ويقول بعضهم لبعض : انظروا إليه ! إنه يرفل في حلة فلان .

وقار

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أترى إلى وقار فلان حين يسعى ؟ إن الناس ليعجبون بما يصطنع من الأناة والمهل .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لو استطاع أن يسعى وهو واقف ، وأن يتحرك وهو ساكن ، لفعل .
قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ليت يأخذ نفسه بمثل ما يأخذ به جسمه من الوقار !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هيهات ! ذاك شيء لا يتاح إلا لأولى العزم .

ذاكرة

قال الطالب الفتى لأستاذ الشيخ . ما أرى ذاكرة الشعوب إلا كهذه اللوحات السود التى توضع للطلاب والتلاميذ فى غرفات الدرس وحجراته يثبتُ عليها هذا الأستاذ ما يمحوه ذاك ، وهى قابلةٌ للمحو والإثبات ، لا تستبقى شيئاً ولا تمتنع على شيء .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هذا حق ، ولكن وراء هذه اللوحات السود فى ضمائر الشعوب ، لوحات أخرى ناصعة تحفظ ما يسجل التاريخ من أعمال الناس . ومن وراء هذه وتلك كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ثم يسأل أصحابها عنها يوم لا تنفع خلة ولا شفاعة . فأضعفُ الناس عقلاً وأوههم عزمًا وأكلهم حياءً هو الذى لا يحفل إلا بلوحاتك السود . والرجل الماهر الأثر ذو القلب الذكى والبصيرة النافذة ، هو الذى يحفل بما وراءها من هذه اللوحات الناصعة التى يكتب فيها التاريخ . والرجل كل الرجل هو الذى يمتاز بالضمير الحى والقلب النقى والنفس الزكية ، فلا يحفل بهذه ولا تلك ، وإنما يحفل بهذا الكتاب الذى تحصي الحفظة فيه على الناس أعمالهم ، لتعرض عليهم بين يدي الله فى يوم مقداره خمسون ألف سنة مما تعدون .

إخاء

كانا صديقين وفيين ، قد صفا بينهما الودّ ، وارتفعت بينهما الكلفة ، واشتدت حاجة كليهما إلى صاحبه ، حتى لم يكونا يفترقان إلا كارهين . وقد استقام لهما الودّ الخالص ، والحب الصّفو ، ما لم يقدر أحدهما لصاحبه على شيء من متاع الدنيا . ثم أتيح لأحدهما حظ من قوة ، فأسدى إلى صاحبه طرفاً من خير . فما هي إلا أن تستحيل الصلة بينهما إلى شيء معقد أشدّ التعقيد ، فيه الاعتراف بالجميل ؛ والاعتراف بالجميل يكدر صفو المودة . وفيه الاستزادة من النفع ، ودخول المنفعة بين الأصدقاء مفسدٌ للصدّاقة . وفيه الموجدّة إذا لم ينل صاحب المنفعة ما يبتغي ، وحاجة من عاش لا تنقضي ، كما يقول الشاعر القديم ؛ ودخول الموجدّة بين الأصدقاء ؛ حين لا يبلغ أحدهم من نفع صاحبه ما يريد ، أولّ مراتب العداء . وفيه الحسد ؛ والحسد يأكل المودّة كما تأكل النار الحطب . ثم فيه الجحود ؛ والجحود لا يفسد الودّ وحده ، ولكنه يفسد المروءة أيضاً . أنجب إذاً أن يعجز الأصدقاء عن أن ينفع بعضهم بعضاً لتصح بينهما الصداقة ، وليخلص بينهما الإخاء ؟ لا أدري ! ولكني أعلم أن ليس أخطر على المودة الخالصة من دخول المنفعة بين صديقين .

إخاء

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إن الشاعر يخبرنا بين الوحدة واحتمال الإخوان على علائهم حين يقول :
 فَعِشْ وَاجِدًا أَوْ صِلْ أَخَاكَ فَإِنَّهُ
 مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمُجَانِبُهُ
 فَأَيُّ الْأَمْرَيْنِ تَحِبُّ لِي أَنْ أَخْتَارَ ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إن الشاعر لم يخبرك وإنما ألزمك الخصلة الثانية ؛ فأنت لا تستطيع أن تنسل من الحياة الاجتماعية ، كما لم يستطع أبو العلاء أن ينسل منها . فاحتمل الحياة الاجتماعية كلها ، واصبر لما فيها من المحن .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وترى إخاء الإخوان محنة ؟
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أى محنة !
 قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : كيف ذلك ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إذا وفى لك الإخوان امتحنت فى وفائهم وفرضت عليك المروءة ألا تفتّر ولا تبطر ، ولا تستغلّ الوفاء فتشوّ عليهم بما لا يطيقون . وإن تنكر لك الإخوان امتحنت فى تنكرهم وفرضت عليك المروءة ألا تقسو ولا تظلم ولا تتجنّى ولا تنتظر منهم فوق ما يطيقون . وأنت بممتحن بعد ذلك فى نفسك ، تفرض عليك المروءة أن تقى لهم إذا وفؤا ، وتصفوا لهم إذا صفؤا ، وتعرفهم حين ينكروناك وتنصحهم حين يغشونك ،

وتبرهم حين يغدرونك ، وتعطيهم أكثر مما يعطونك ، وتسير من إخوانهم على مثل الشوك .

صَدَقْنِي ! إِنْ إِخَاءَ الْإِخْوَانِ مُحَنَّةٌ لَا يَثْبُتُ لَهَا إِلَّا أُولُو الْعِزِّمْ .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : فَإِنِّي أَوْثِرُ الْوَحْدَةَ .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هِيَ هَاتِ ؟ تِلْكَ أَمْنِيَّةٌ تَبْتَغِي وَلَا تَنَالُ .

إِخَاءٌ

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : كَيْفَ تَقُولُونَ فِي إِعْرَابِ هَذَا الْبَيْتِ :

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنَّ مَنْ لَا أَخَا لَهُ

كَسَاعٍ إِلَى الْهَيْجَا بغير سِلَاحٍ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : أَمَّا النُّحَوِيُّونَ فَيَقُولُونَ إِنَّ « أَخَاكَ » مَنْصُوبٌ

عَلَى الْإِغْرَاءِ ؛ لِأَنَّ الشَّاعِرَ يَرْغَبُ فِي حُبِّ الْإِخْوَانِ وَالْوَفَاءِ لَهُمْ .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وَأَمَّا أَنْتَ ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وَأَمَّا أَنَا فَأَعْرَبُهُ مَنْصُوبًا عَلَى التَّحْذِيرِ ،

وَأَغِيرُ فِيهِ كَلِمَةً وَاحِدَةً فَأُنْشِدُهُ :

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنَّ مَنْ لَا أَخَا لَهُ

كَسَاعٍ إِلَى الْهَيْجَا بِكُلِّ سِلَاحٍ

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : إِنَّكَ لَشَدِيدُ التَّشَاوُمِ .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي :

وَهَلْ أَنَا إِلَّا كَالزَّمَانِ إِذَا صَحَا

صَحُوتُ ، وَإِنْ مَاقَ الزَّمَانُ أَمُوقُ

إخوان

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : إني أقرأ في عيون الأخبار أن المأمون قال : الإخوان ثلاث طبقات : طبقة كالدواء لا يستغنى عنه ، وطبقة كالدواء لا يحتاج إليه إلا أحياناً ، وطبقة كالداء لا يحتاج إليه أبداً .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : عسى المأمون يا بني أن يكون مصيباً في أيامه ، ولكنك تعلم أننا نعيش في أيام شح فيها الغذاء ، وقل فيها الدواء ، وانتشر فيها الداء . وأخلق بمن بقي من الإخوان أن يكونوا كما بقى لنا من الحياة : جوع لا يدفعه غذاء ، وداء لا يشفيه دواء .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وإذا ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وإذا فاعمل صالحاً ، وانتظر اللجنة التي وعد الله عباده الصالحين ، والتي لا يحرم أهلها غذاء ، ولا يشكون داء ، ولا يلتمسون دواء ، ولا يعدمون أخاً وفياً ، وصديقاً رضيعاً ، وخليلاً صفيّاً .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وإلى أن أدخل اللجنة إن أتيحت لي دخولها ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : فاتلُ قولَ الله عزَّ وجلَّ :

«وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ . إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ .»

ذوق

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : إنكم لتعلمونا من العلم ما يفسد علينا الذوقَ والحُكمَ جميعاً .

قال الأستاذ الشيخ وهو يتسم لتلميذه الفتي : وما ذاك ؟

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ذاك أني قرأت بيتاً كان طبعي خليقاً أن يعجبَ به ، لولا أنكم تعلمونا الشك وسوء الظن ، والبحث عن الأسباب التي تدعو الشاعر إلى أن يقول ، والكاتب إلى أن يكتب . فلما قرأت هذا البيت من الشعر وهم طبعي أن يرضى عنه ويعجبَ به ويطيل تعمقه والتفكير فيه . سألت نفسي كما علمتموني أن أسألهما : ألا يمكن أن يكون مصدر هذا البيت رَغْباً أو رَهْباً أو حَسْداً ، فأدركني فتور الهمة وكلال الحدّ .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وما هذا البيت ؟ !

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ . « هو بيتٌ قاله رجلٌ من ذوى الرأى كان يُردُّ دائماً عن باب الحجاج :

أَلَا رَبُّ نَصْحٍ يُغْلَقُ الْبَابُ دُونَهُ

وَعِشُّ إِلَى جَنْبِ السَّرِيرِ يُقَرِّبُ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وما عليك أن يكون مصدرُ هذا البيت رَغْباً ، أو رَهْباً ، أو حَسْداً ، أو غير ذلك من عواطف الشرِّ والخير ؟ ! أتراك تعرض عن الزهرة الجميلة ، والوردة النضرة ، والعشب ذى الرواء والبهجة ، حين تعلم ما يتخذ البستاني من الوسائل إلى استنباتها وجعلها زينة للحياة ؟

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لا !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : فاستمتع بالأدب ، وتعمق معانيه ودق جماله ، كما تستمتع بالحديقة ، واجعل بحثك عن التاريخ الأدبي كبحث أستاذ الزراعة عن أصول الزهر والشجر ، ولا يصرفك عن المتعة ولا يزهدك في اللذة ، ولعله أن يغريك بهما ، ويرغبك فيهما . أليس من الرائع أن يخرج الله الحي من الميت ، والجميل من القبيح ! !

معارضة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : إني أقرأ في عيون الأخبار لابن قتيبة أن عمرو بن عبيد مرّ بجماعة عكوف ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : سارق يقطع ! فقال : لا إله إلا الله ، سارق السريقطعه سارق العلانية فهل تنبئني إلام أراد ؟ قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : كان عمرو بن عبيد زعيماً من زعماء المعتزلة ، وكان زاهداً في الدنيا مخلصاً للدين ، وكان شجاعاً لا يخشى في الحق لومة لائم ، وما أراد بقوله هذا إلا أن يصف عامل البصرة ، بأنه كان سارقاً لأموال المسلمين ، يسرقها جهرةً لأنه لا يخاف أحداً ، منافقاً في إمضاء حكم الله ، يعاقب على إثم يسير يستخفي به صاحبه ، وهو يقارف أعظم الآثام وأضخمها . فإن اجتمع لك زهد عمرو بن عبيد في الدنيا وحرصه على الدين وشجاعته على مواجهة الحكام بما لا يحبون ، فانهض بتبعات السياسة ، وإن لم تجتمع لك هذه الخصال فالتمس لنشاطك سبيلاً أخرى .

معارضة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وإني أقرأ في كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة أن طارقاً صاحب شرطة خالد القسريّ مرّ بابن شبرمة وطارق في موكبه ، فقال ابن شبرمة :

أراها وإن كانت تُحَبُّ كأنّها

سحابة صَيِّفٍ عن قريب تَقَشَّعُ

اللهم لي ديني ولهم دنياهم . فاستعمل ابن شبرمة بعد ذلك على القضاء فقال له ابنه : أتذكر يوم مرّ بك طارق في موكبه وقلت ما قلت ؟ فقال : يا بنيّ ، إنهم يجدون مثل أبيك ولا يجد مثلهم أبوك . إنّ أباك أكل من حلوائهم وحط في أهوائهم . فهل تُنبئني هذا الحديث ؟ !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : مغزاه يسيرٌ كل اليسر ؛ فقد كان ابن شبرمة كغيره من أخيار الناس الذين لا تطيب أنفسهم عن متاع الدنيا ؛ فعارض السلطان لأنه كان طامعاً في بعض ما عنده ، فلما ولى القضاء رضى على السلطان وسخط على نفسه : رضى على السلطان لأنه ولاه ، وسخط على نفسه لأنه لم يستطع أن يصبر على الحرمان .

ورحم الله ابن شبرمة ! فقد كان له من الشجاعة حظ حسن حين اعترف لابنه بأنه أكل من حلوائهم وحط في أهوائهم ؛ لأنه إن لم يستجب لهم حين دَعَوْه وجدوا غيره ممن يلى القضاء مكانه ، أما هو فلن يجد غير السلطان قوة توليه القضاء .

فوازن يا بني بين شجاعة عمرو بن عبيد الذى أياس نفسه من السلطان
فانتهى بمعارضته إلى غايتها ، وشجاعة ابن شبرمة الذى أطمع نفسه فيما عند
السلطان ، فانهى بشجاعته إلى أن تمثل بيتاً من الشعر .

معارضة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى فلان يطالب بالجللاء السريع
- متى وضعت الحرب أوزارها - إلى أوربا .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : إلى أن يلى الحكم أو يشارك فيه .

معارضة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وثب فلان أمس من أقصى اليمين إلى
أقصى الشمال .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : يش من رضا الحكام فابتغى رضا
الشعب .
قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم يكن يقال لا معنى لليأس مع الحياة
ولا معنى للحياة مع اليأس .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : فإن مدّت له أسباب الحياة ودعاه الأمل
إلى يمين ، فوثبة أخرى ترده من رضا الحكام إلى ما يريد . مادام الإنسان
قادراً على أن يذهب ويحيى فلا جناح عليه في أن يذهب ويحيى !
قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : والمبدأ ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : المبدأ وسيلة لا غاية !

وصف

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : إني أقرأ في كتاب الكامل للمبرد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للأنصار في حديث جرى : « إنكم لتكثرُونَ عند الفرع وتقلون عند الطمع » ، فما أدرى أي الأمرين أبلغ أثراً في النفس : أخلاق الأنصار هذه أم وصف النبي لها !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : كلاهما رائع رائع يملأ النفس إعجاباً وحباً . ولكن خَلَفَ بعد الأنصار خَلْفٌ يكثرُونَ عند الطمع ، ويقلون عند الفرع ، وانظر حولك فسترى ما يملأ النفوس من ذلك روعةً ورَوْعاً .

عقوق

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألا تحدثني عن سنار هذا الذي كثر الحديث عنه في هذه الأيام : مَنْ هو ؟ وما شأنه ؟ وفيم يكثرُ الناس عنه الحديث ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : « زعموا يا بني أنه رجلٌ رومي بني للنعمان بن المنذر قصراً أو قصرين لا أدرى ، فلما أتمَّ عمله على أحسن وجه وأكملهُ ، رضى النعمان عنه ، ولكنه أشفق أن يبنى لغيره من الملوك مثل ما بنى له ، فأمر به فألقي من أعلى القصر فاندقت عنقه فمات . والناس يضربونه مثلاً لمن يقدم إلى الناس خيراً وإحساناً فيجزونه بالشرِّ والمساءة .

ولكنّ في الدنيا أفراداً كثيرين يمكن أن يسمى كل واحد منهم سنار ، ولكنه يلقى من حائق فلا تندقّ عنقه ، ويساق إليه الشر فلا يؤذيه ، ويكاد له الكيدُ فلا يبلغ منه شيئاً ، تستطيع أن تسميه سنار الخالد ؛ لأنه لا يبنى لأصحاب السطوة والبأس ، وإنما يبنى للشعوب ، ولأنه لا يبنى للشعوب دوراً ولا قصوراً ولا شيئاً من هذه الآثار التي يبلغها البلى ويدركها الفناء ، وإنما يبنى لها فناً وأدباً وفلسفة وعلماً وإصلاحاً . ألا تذكر مصارع النابغين من الأدباء والعلماء والفلاسفة ؟ ألا ترى أنك لا تزال تستمتع بآثارهم ؟ »

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وسيستمع الناس بعدنا بآثارهم حتى يرث الله الأرض ومن عليها !

فن

قال شهر يار ذات يوم لزوجته شهر زاد : تعلمين أني لم أفهم بعد لماذا قطعت عني قصصك الجميل !

قالت شهر زاد : لأمرين يسيرين ، أحدهما أني أخذت في هذا القصص لأحقن دمي وأعصم نفسي من الموت ، وأصرفك عن سفك الدماء ، وقد بلغت من هذا كله ما أريد . الثاني أن الجهد الفني ممتع حقاً إذا نشأ عن الرغبة والاختيار ، بغض حقاً إذا نشأ عن الرهبة والإكراه . وقد أخذت نفسي بما تكره ما دعت إلى ذلك ضرورة . وقد آن لي أن آخذ بحظي من الحرية ، فلا أقص إلا حين أريد أنا ، لا حين تريد أنت ، ولا حين تريد الظروف .

خصام

قال شهر يار ذات يوم لزوجته شهر زاد : تعلمين أنك مخطئة حين تقدرين أنى سلوتُ عن سفك الدماء ، وأنتك مخطئة حين تظنين أنك حققت دمك فلا يراق ، وعصمت نفسك فلن ترهق ، وإنى لأحس شيئاً من الظماً إلى الدم ، وأخشى أن يكون دمك أول ما يروى ظمى .

قالت شهر زاد : إن كنت إنما تخوفنى بذلك لأعاهد القصص ، فلن تبلغ مما تريد شيئاً ؛ لأن الخوف إن أنتج الفن مرة فلن ينتجه مرتين ، وإن كنت جاداً فى هذا النذير فروّ ظمأك وانقع غلتك ، فلن يدلك هذا إلا على أن علتك أعضل من أن يشفيها الفن . ولست أكره أن يكون دمي أول ما يروى ظمأك ؛ فقد تجد من الندم ما يشفى هذه العلة التى عجز الفن عن شفاؤها . وأنت بعد مخير بين أن تصبر على هذا الظماً البغيض فتصبر على ما تكره ، وبين أن تنقع هذه الغلة فتضطر بنيك إلى اليتيم وتظمئهم إلى دمك .

قال شهر يار : فإن قتلتك وقتلت بنيك أيضاً ؟

قالت شهر زاد : إذا نصبر على الشكل حتى تلتمس الرى لظمئك فى دمك ، فتغمد فى صدرك الخنجر الذى تريد أن تغمده فى صدورنا .
قال شهر يار وقد ظهر عليه روع شديد : حجراً محجوراً .

موعظة

قالت شهر زاد ذات يوم لزوجها شهر يار : تعلم أنى لم أفهم بعد لماذا لم تكتف بالانتقام من زوجك التى خانتك ، فأردت أن تنتقم من النساء جميعاً .

قال شهر يار : إنها الفتنة ! واقترئى إن شئت قول الله عز وجل :
« وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » .

قالت شهر زاد : ليتك قرأت هذه الآية وتدبرتها قبل أن تقترف ما اقترفت من آثام !

قال شهر يار : لقد تغيرت وصرت إلى حال لم أكن أرتقبها منك . قد كنت تسلينى بالقصص ، وتلهينى بحلو الحديث ؛ فأنت الآن تحاسبينى على ما قدّمت . وتؤنبينى بالوعظ المر .

قالت شهر زاد : لأن السلو عن الإثم لا يكفى لمحوه ، وإنما الندم وحده هو الذى يطهر القلوب ويهيئ النفوس للتوبة النصوح .

تجن

تلقّاهم من المدارس الثانوية لا يحسنون شيئاً ، فتعهدهم حتى أحسنوا أشياء كثيرة ، وحتى ظفروا بما يظفر به الشباب الممتازون فى الحياة الجامعية من درجات وألقاب .

ثم تعهدهم حتى اطمأنوا في الحياة إلى ما يحبون .
 وكانوا لهذا كله ذاكرين شاكرين ، وكانوا من هذا كله متريدين ،
 حتى لم يجدوا سبيلاً للمزيد . ثم ازور عنه السلطان فازوروا عنه ، وقالوا :
 جفوتنا حين كان يحسن أن تصلنا .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما أعرف أنهم لقوا منك جفاءً أو إعراضاً .
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : « ليس المهم أن تعرف أو لا تعرف ،
 وإنما المهم أن تعلم أن كلمات التجنى والتعلل والتكلف لم توضع في اللغة
 عبثاً ، وإنما وُضعت لتدلّ على معان . والمعاني لا تقوم بأنفسها ، وإنما
 تقوم بأنفيس الناس ! »

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : « أليس قد علمنا المعلمون في الكتاتيب
 أن الإمام الشافعي كان يقول : من علمني حرفاً صُرْتُ له عبداً ؟ ! »
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : « بلى ! ولكن الحياة قد علمتنا أن
 الضرورات تبيح المحظورات . ومن المحظورات أن تجفو من جفاء السلطان ؛
 فقد تصدّك صلته عن بعض ما تحب ، وتصرف عنك بعض
 ما تتمنى ! »

نعمة مضيعة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لم تتقدّم بي السن بعد ، ولكني أرى
 الناس بين رجلين : أحدهما يحسن ويدل بإحسانه على الناس ، والآخر
 يتلقى الإحسان ويحجد حق من أهدها إليه .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : نعم ! وتضيع النعمة بين مانّ بها وكافر لها .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فما تحب لي أن أكون من ذلك ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : مكان من إذا أحسن نسي إحسانه ،
وإن أهلى إليه الإحسان لم ينس أن عليه ديناً يجب أن يؤدي . والخير
أن تدينَ وألاً تدان .

غرور

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وإني أقرأ في كتاب عيون الأخبار
لابن قتيبة : وليَ عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس المدينة سنتين ،
فأحسن السيرة ، وعفّ عن أموال الناس ، ثم عزل ، فاجتمعوا إليه ،
فأنشد للدراج الضبائي :

فَلَا السَّجْنُ أَبْكَانِي وَلَا الْقَيْدُ شَفَّنِي
وَلَا أَنِّي مِنْ خَشْيَةِ الْمَوْتِ أَجْزَعُ
وَلَكِنْ أَقْوَامًا وَرَائِي أَخَافُهُمْ
إِذَا مِتُّ أَنْ يُعْطُوا الَّذِي كُنْتُ أَمْنَعُ

ثم قال : والله ما أسفت على هذه الولاية ، ولكني أخشى أن يلي هذه
الوجوه من لا يرمى لها حقها . فما تأويل هذا الكلام .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كلامٌ يقوله كل من كان يلي أمراً ثم
عزل عنه . فكل الناس يرى أنه أقدر من غيره على تدبير الأمور . وعسى

أن يكون عبد الرحمن بن قيس صادقاً . ولكن تتبع الآن من يؤلّون ويعزلون
فستسمع منهم مثل مقالة عبد الرحمن بن قيس .

غرور

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أقرأت كتاب فلان ؟ إنه ينبئنا بأنه
استرد حريته ليملاً الأرض حباً وسلاماً ، بعد أن ملئت بغضاً وخصاماً !
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : نعم ! وقد صدق المتنبي حين قال :
وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدَرَهُ
رَأَى غَيْرَهُ فِيهِ مَا لَا يَرَى

غرور

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : إذا صرف فلان عن السلطان لم ير إلا
حزيناً بائساً ، فإذا رُد إليه لم ير إلا سعيداً موفوراً .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لأنه يرى نفسه حاكماً بالطبع ، ولم يقرأ
قولَ الله عز وجل :

« مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ
إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ .
لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » .

وجوم

مال إلى صاحب يسألني : أقرأت هذا الفصل ؟

قلت : نعم !

قال : من كاتبه ؟

قلت : لا أدري ؛ لأنه لم يعلن اسمه .

قال : ومع ذلك فقد رضى أن يوصف بهذه الأوصاف التي تتملق الغرور :

قلت : ذلك شأنه .

قال صاحب لنا : ماذا يسر أحدكما إلى صاحبه ؟

قلت : لا يسر أحدنا منا إلى صاحبه شيئاً .

قال صاحبي : إنما نتحدث عن هذا الفصل الذي كتبه كاتب يوصف

بالامتيار ، ولكنه لا يسمى نفسه ، ولا يسميه ناشر هذا الفصل .

وأخذت الجماعة كلها تعبت بهذا الكتاب الذي امتاز في رأى نفسه

وفي رأى ناشره ، ولكنه لم يجد الشجاعة على أن يسمى نفسه ، ولم يجد ناشره

الشجاعة على أن يسميه . لم يكن الفصل سياسة ولا شيئاً مما يخاف ، وإنما

كان أدباً أو شيئاً يشبه الأدب . فلما ملأت الجماعة أفواهها بنقد هذا

الكاتب وعييه والاستهزاء به والنعي عليه ، تبين لها أنه قد يكون جالساً بينها .

هنالك لحقت في أيدي القوم ، وأدركهم وجوم كاد يطول لولا أن صاحب

المجلس قال : سبحان الله !

فتفرق القوم ، ومنهم من يستحي ، ومن لاحظ له من حياء .

تضليل

لم أر قط شيئاً أجملَ ولا أشد روعةً مما رأيت اليوم : رأيت نفرأ عرفوا
بذكاء القلوب ، ورجاحة الأحلام ، وامتياز العقول ، قد كذبوا على
الناس فلم يصدقهم أحد ، ولكنهم ألحوا في الكذب حتى صدقوا أنفسهم
ثم خدعوها بالغرور والأوهام ، ثم ابتهجوا بهذا الانخداع ، فكانت
وجوههم مشرقة وثغورهم باسمة ، وألسنتهم منطلقة ، بما يصور النصر
المؤزر ، والفوز المبين . وكان الناس الذين لم يؤمنوا لهم ولم يصدقوهم
يضحكون من هؤلاء الأساتذة المحنكين الذين أرادوا أن يضلوا غيرهم فأضلوا
أنفسهم .

قطط

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لي صديق يحب القطط ويطيل عشتها .
وأكاد أعتقد أنه اكتسب من أخلاقها شيئاً غير قليل .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : فإن عشرة الحيوان للناس تعلمه الأنس
بعد التوحش ، وتكسبه غير قليل من خصال الحضارة . فما يمنع أن يتأثر
الناس بالحيوان كما يتأثر الحيوان بالناس ! وقد قال الشاعر القديم :
* عَنْ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ *
فإذا كان القرين قطاً فأحرى أن يكتسب المرء أخلاق القطط .

قصور

قال الطالب الفنى لأستاذه الشيخ : أليس عجيباً أن تحدثَ الحوادث ،
وتلم الكوارث ، ويصطرع العالمُ هذا الصراع العنيف ، ونحن معنيون
بصغائر الأمور ؟

قال الطالب الفنى لأستاذه الشيخ : فإن المتنبى لم يخطئ حين قال :
* على قَدْر أهل العزم تأتي العزائم *
ولو استطعنا أكثر من ذلك لفعلنا .

تكريم

قال الطالب الفنى لأستاذه الشيخ : كيف تجتمع الصفوة الممتازة من المثقفين
لتكريم كاتب يحسن الخطأ أكثر مما يحسن الصواب ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفنى : لأن هذه الصفوة تكرم اسمَ شخص
تعرفه لا مؤلف كتاب لم تقرأه .

غيبة

قال أحد الأدباء لبعض زملائه : ألا تعجبون لفلان هذا الذى صار صديقاً
للناس جميعاً !

قال أحد الزملاء : أخشى ألا يكون صديقاً لأحد ؛ لأن رضا الناس جميعاً شيء لا ينال .

قال آخر : أخشى أن يكون عدواً للناس جميعاً ، وألا تكون صداقته إلا لوناً من المداراة والرياء .

قال ثالث : أخشى ألا يكون صديقاً إلا لنفسه ، يحتمل في إرضائها كل مشقة ويتكلف فيه كل عناء ، ومن ذلك تودده لمن يسيغ ومن لا يسيغ من الناس .

وكنت حاضر هذا المجلس ، فلما سئلت في ذلك تلوت قول الله عز وجل :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ » .

ظلم

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما حديثٌ سمعته منك صباحَ اليوم ، فلم أفهم منه شيئاً !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وما ذاك ؟

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : سمعتك تتحدث عن الظلم المر ، والظلم المحلو ، والظلم الذى يجمع بين الحلاوة والمرارة . فلم أفهم عنك .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فَإِنَّ الظلم مر في قلب المظلوم حين يمسّه ،
حلّو في قلب الظالم حين يصدرُ منه ، وهو حلّو ومر في قلوب العاشقين
حين يتقارضون الظلم ويجنّى بعضهم على بعض جنائيات الغرام .

رجوع

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألم يكن فلان شريكَ فلان فيما نقض
وما أبرم من هذا الأمر ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : بلى ! وكان يلتهب حماسةً لما شارك فيه
من نقض وإبرام .
قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فما باله الآن يبرم ما كان نقض ،
وينقض ما كان أبرم ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لأن للضرورات أحكامها ، ولأن الرجوع
إلى الباطل أنفع وأجدى من التماذى في الحق .

رعية

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : قرأت في بعض الكتب أن المنصور قال
لبعض قواده : صدق الذى قال : أجمعُ كلبك يتبعك ، وسمنه يأكلك .
فقال له أبو العباس الطوسى : أما تخشى يا أمير المؤمنين إن أجمته أن يلوح له
غيرك برغيف فيتبعه ويدعك .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : عفا الله عن المنصور وجليسه ! فقد شَبَّها الناس بالكلاب ، والله عز وجل يقول :

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الرُّ وَالْبَحْرِ
وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ
خَلَقْنَا تَفْضِيلًا » .

رعية

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لو أن المنصور الذي ضرب الكلب مثلاً لرعيته وضع الأسد موضع الكلب ، فكيف كان يقول ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : كان يقول أجع أسدك يأكلك ، وكان ذلك أحرى أن يغير رأيه في الرعية وسياسته لها ، فيقيم الأمر بينه وبين المسلمين على الهيبة والحب ، لا على الازدراء والإغراء .

رعية

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لو أن المنصور الذي ضرب الكلب مثلاً لرعيته لم يشبه رعيته بالكلاب ولا بالأسود ، وإنما أخذها كما خلقها الله ناساً من الناس ، فكيف كان يقول ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : كان يقول : أنصف شعبك بحبيك .

رعية

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : كيف يسمى الشعبُ رعية وقد أصبح مصدرَ السلطات بنص الدستور ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هو رعية نفسه بعد أن صار السلطان إليه وما أكثر الكلمات العتيقة التي تفقدُ معانيها الأولى وتستبقها الشعوب مع ذلك لتدل بها على معان جديدة ، فينشأ عن ذلك كثير من التخليط !

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وتصديق أن الشعب يعتقد أنه سيد نفسه ، وأنه مصدر السلطات وأنه بذلك هو الراعي ، وهو الرعية ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : بذلك يحدثه الدستور ، وهو إن لم يصدق الدستورَ اليوم ، فقد يصدقهُ غداً .

وهز

قال شهر يار ذات يوم لزوجته شهر زاد : ألم تقرئي كليله ودمنة ؟

قالت شهر زاد : بلى ! قد قرأته وقرأته .

قال شهر يار : فلمَ لم تذهبي في بعض قصصك من الرمز والإشارة مذهب بيدبا الفيلسوف ؟

قالت شهر زاد : لأنك لم تذهب في التماس القصص مذهب دبشليم الملك ، كان يطلب الحكمة يغذو بها قلبه وعقله ، فأدى إليه فيلسوفه من

ذلك ما أراد . وكنت غارقاً في بحر من الدم ، فاستنقذتك من هذا العرق
بما وجدت من وسائل الإنقاذ . ولو أئني انتظرت حتى أبرم لإنقاذك أسباباً
من التحرير لكان من الممكن أن تذهب بك أمواج الدم ، وأن ألتمسك
فلا أجد إليك سبيلاً .

غيرة

قال أحد الأدباء لبعض أصحابه : أتدري لم مات فلان ؟

قال صاحبه : لا !

قال الأديب : زعموا أن فلاناً غلبه على قلب من أحب .

ثم مضت أسابيع والتقى الصديقان ، وهم أحدهما أن يقول لصاحبه شيئاً ،
ولكنه أمسك عن القول لأنه ذكر أن الغيرة قد تقتل الناس أحياناً .

مجنون

ما زالت امرأته تظهر له الغيرة حتى أغرته بالإثم فتورط فيه ؛ وما زال
هو يلوم ابنه على العبث حتى دفعه إليه ، وما زال ابنه ينهى صاحبه عن عشرة
خليلة السوء حتى اتخذها له زوجاً . أليس من الخير أن يتدبر الناس مجنون
أبي نواس حين قال :

* دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ *

فرب مجنون أدنى إلى الموعظة من الحكمة البالغة .

تلطف

سئلت : أى المصريين أحب إليها وآثرُ عندها وأحقُّ بإعجابها ؟ فسمت قوماً وأثنت عليهم ما عسى أن يكونوا أهلاً له . ولو قد زارت مصر فى وقت آخر وألقى عليها السؤال نفسه لسمت قوماً آخرين وأثنت عليهم بما عسى أن يكونوا أهلاً له . فهى لا تثنى على أولئك وهؤلاء ، وإنما تتلطفُ للسلطان ، فأحرى ألا تلقى مثل هذه الأسئلة على الأجانب ، لولا أن حاجة المصريين والضعفاء منهم خاصة إلى الثناء تكلفهم وتكلف غيرهم شططاً .

هجرة

قال الطالب الفقى لأستاذه الشيخ : عَرَضَ علينا « جوفينال » عرضاً رائعاً الأسباب التى دفعته إلى الرحيل عن روما ، وكلها يرجع إلى فساد الحياة العقلية والاقتصادية ، وإلى بطر الأغنياء ، وبؤس الفقراء ، واضطراب الأمن . ألا ترى أننا فى حاجة إلى جوفينال يفصل لنا الأسباب التى تدفعنا إلى ترك القاهرة ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقى : تريد أن تقول الأسباب التى تدفعنا إلى ترك مصر ؟ ولو قد ذهبت إلى غير مصر من أقطار الأرض لاحتجت إلى جوفينال يفصل لك الأسباب التى تدفعك إلى تركه .

فَأَقْنَعْ بِمَا قَسَمَ الْمَلِيكُ فَإِنَّمَا

قَسَمَ الْخَلَائِقَ بَيْنَنَا عَلَامُهَا

كما يقول لبيد : وإذا احتجت إلى جوفينال ليفصل لك أسباب الهجرة
 التي نشعر بالحاجة إليها فأنشد قول أبي العلاء :
 وهل يَأْبَقُ الإنسانُ مِنْ مُلْكِ رَبِّهِ
 فَيَخْرُجَ مِنْ أَرْضٍ لَهُ وَسَمَاءُ

هجرة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم يقل شاعر قديم :
 وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى
 وفيها لمن خاف القلي متغزل
 أو لم يقل شاعر آخر :
 لعمرك ما في الأرض ضيق على امرئ
 سرى راغباً أو راهباً وهو يعقل
 أو لم يقل بشار :
 إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها
 خرجت مع البازي على سواد
 أو لم يقل المتنبي :
 ما مقامى بأرض نخلة إلا
 كمقام المسيح بين اليهود
 أنا في أمة - تداركها الله
 به - غريب كصالح في ثمود

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إنك لكثير الرواية منذ اليوم ، فما ذاك ؟
قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ذاك أن إقامة الرجل الكريم على الضيم
الذى لا يرضاه لا تعجبني .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فإن كان الرجل الكريم يحب وطنه
ويؤثر الجهد والعناء فيه على الراحة والرضا في غيره من الأوطان ؟ وقرأ إن
شئت قول الشاعر القديم :

لَعَمْرِي لَقَوْمُ الْمَرْءِ خَيْرُ بَقِيَّةٍ
عليه وإنْ عالوا به كلَّ مَرْكَبٍ
من الجانب الأَقْصَى وإنْ كان ذَا غِنًى
كثير ، ولم يخبركَ مثْلُ مُجَرَّبٍ

تصوير

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لا أعرف شيئاً أبرع ، ولا أبلغ ، ولا أدق
في تصوير بؤس البائسين ، وثرأ المثرين ، والتفاوت المخزى بين الطبقات
من هجاء « جوفينال » .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ألا أدلك على شيء هو أبرع ، وأبلغ ،
وأدق تصويراً لذلك من هجاء « جوفينال » ؟ ! انظر إلى حياة المصريين .

رقى

قال الطالب الفقى لأستاذة الشيخ : ما بالُ عظامم الأمور تسندُ إلى قوم لا يعقلونها ، ولا يقرون على النهوض بها . ولا بأيسر منها ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقى : لأن السياسة كالطبيعة لها حكمة لم تستطع عقول الناس أن تفهم حقائقها بعدُ .

رقى

قال الطالب الفقى لأستاذة الشيخ : ما بالُ الذين تعجزهم صغائر الأعمال يكلفون النهوض بعظامم الأمور ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقى : لأنهم خلقوا للعظامم ، وخلق غيرهم للأمور اليسيرة .

رقى

قال الطالب الفقى لأستاذة الشيخ : أعرف قوماً يكلفون يسيرَ الأمر فيخفقون ويرقى بهم ذلك حتى يكلفوا جليلَ الأمر !
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقى : هؤلاء قومٌ يرقى بهم العجزُ حين يعمدُ بهم الإعجاز .

رقى

قال الطالب الفقى لأستاذة الشيخ : يقول الطغرائى فى لاميته المشهورة :
أريدُ بَسْطَةَ كَفٍّ أَستَعِينُ بها

على قضاء حُقُوقِ للعُلا قبلَ
فما عسى أن تكون هذه الحقوق التى لا يستطيع صاحبها أن يؤديها إلى
العلا إلا أن يكون كثيرَ المال ، عظيمَ الثراء ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقى : إنها تختلف باختلاف المزاج ؛ فمن
الناس من يرى أن من حق العلا عليه أن يطعمَ الجائع ، ويكسوَ العارى ،
ويروى الظمآن ، ويعلمَ الجاهل ، ويعين المريض على التماس الطب لعلته .
ومن الناس من يرى أن من حق العلا عليه أن يغشى حانات اللهو ،
وأندية القمار . وهؤلاء أحرى أن يكثرُوا ، وأجدر أن يظفروا من العلا بما
يريدون .

رقى

قال الطالب الفقى لأستاذة الشيخ : ألم نكن نلقن فى نضرة الصبا أن من
طلب العلا سهر الليالى ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقى : ذلك حين تكون العلا غالية بعيدة المنال
فأما حين ترخصُ فإنها تنال بأيسر من سهر الليالى .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وما ذاك ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي . إسداء الثناء إلى غير الأكفياء ، وإهداء الهجاء إلى ذوى الغناء ، وقذفُ المحصّنات والخوض في الأعراض بغير الحق ، وجفوة الصديق ، وخيانة الخليل .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وترى ذلك ثمناً يسيراً ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : أيسر من الرمل على ساحل البحر ، ومن الماء على شاطئ النيل .

تعريض

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : إلامَ أراد المتنبي حين قال :

إِذَا كَانَ بَعْضُ النَّاسِ سَيْفًا لِدَوْلَةٍ

فَفِي النَّاسِ بُوقَاتٌ لَهَا وَطُبُورٌ ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي . إنما أراد إلى أن « سيف الدولة » كان

خليقاً باسمه ؛ لأنه كان يحمي ثغور المسلمين من عدوان الروم ، على حين كان قومٌ آخرون في بغدادَ يتكثرون بما لا غناء فيه ولا طائل تحته : من هذه المواقب الفخمة التي كانت تزخرُ بها عاصمة الخلافة .

ضحك

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألا يغيظك قول المتنبي فينا :

* يَا أُمَّةَ ضَحِكْتَ مِنْ جَهْلِهَا الْأُمَمُ *

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى وما يغيظني من ذلك ؟ ! أسخط كافور
المتنبى ، فقال شر ما علم ، وأرضاه فقال خير ما علم . وصدق رسول الله .
« إِنَّ مِنْ الْبَيَّانِ لَسِحْرًا وَإِنَّ مِنْ الشُّعْرِ لَحِكْمًا »

ضحك

قال الطالب الفتى لأستاده الشيخ : أحق أن الأمم ضحكت من جهلنا قديماً
كما يقول المتنبى ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى . كما ضحكنا وكما لا نزال نضحك من
جهل أُمم غيرنا .

انتصار

قال الطالب الفتى لأستاده الشيخ : ما الذى يعجب الناس من قول المتنبى :
وَإِذَا مَا خَلَا الْجَبَّانُ بَارِضٌ
طَلَبَ الطَّعْنَ وَحَدَّهُ وَالتَّرَالَ
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : يعجبهم منه يا بنى أنه يعرض صورة
رائعة في دقتها وصدقها وإيجازها لحقيقة إنسانية خالدة ، وهى أن شجاعة
كثير من الشجعان ، وانتصار كثير من المنتصرين ، وتفوق كثير من
المتفوقين ليست إلا تكثراً وغروراً . فإذا جاء الخوف قلَّ الشجاع وندر
الانتصار ، وأصبح التفوق أمنية لا تنال إلا في عسر شديد . وليتك تقرأ

قصة « دون كيشوت » للكاتب الإسباني « سرفنتس » ، أو قصة « تارتاران
 دى ترسكون » للكاتب الفرنسى « ألفونس دوديه » لتعلم أن هذين الكاتبين
 العظيمين لم يزيذا على أن شرحا قول المتننى :
 وَإِذَا مَا خَلَا الْجَبَانَ بِأَرْضِ
 طَلَبَ الطَّعْنَ وَحْدَهُ وَالتَّرَالَ

ذوق

قال الطالب الفقى لأستاذه الشيخ : أليس مما يعجب ويروق أن تعزفَ
 موسيقى « موزار » و « بهوفن » ترويحاً للرفق بالحيوان ؟
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقى : وأى غرابة فى ذلك وموسيقى « موزار »
 و « بهوفن » تعزف ترويحاً للرفق بالبائسين من الناس ! وهل تختلف طبيعة
 البؤس حين يلمّ بالإنسان أو بالحيوان ؟
 قال الطالب الفقى لأستاذه الشيخ : فإنى أرى فى هذا العطف رفعا للحيوان
 إلى منزلة الإنسان .
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقى : وأنا أرى فيه نزولاً بالإنسان إلى مرتبة
 الحيوان . ومدار الأمر كله على الذوق .

رفق

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم أعلم أن الحكومة قد أصبحت أرأف بالحيوان من أبي العلاء ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : ماذا تقول ؟ ! أتراها حرّمت ذبحه وأكله ، وحفظت اللبن على البقر والشاة ، والبيض على الدجاج ، والغسل على النحل ؟ !

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لا ! ولكنها أذنت فأقيمت ليلة موسيقية ساهرة لمعينة الذين يرفقون بالحيوان .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لو خير الحيوان لاختار الحياة والعافية على الموسيقى والرقص .

إيثار

قال بعض الولاة لبعض جلسائه : أبغني رجلَ صدق أركن إليه فيما يعني من الأمر .

قال الوالي : وأين أنت - أصلحك الله - من فلان ؟ ! فإنه رجلُ صدق ، ورجلُ حزم ، ورجلُ عزم ، ورجلُ عدل .

قال الوالي : عد عنه ؛ فأني أؤثر به نفسي ، وأركن إليه في خاصّة أمرى . وبلغ الحديث فلاناً هذا ، فقال :

وَإِذَا تَكُونُ كَرِيهَةً أُدْعَى لَهَا
وَإِذَا يُحَاسُّ الْحَيُّسُ يُدْعَى جُنْدُبُ
وكان معه صديق فقال : إلى أى حد يستقيم للوالى أن يؤثر نفسه بك من
دون المدينة ؟
قال فلان : أليس فى صلاحه صلاح المدينة ! !

نفع

قال أحد الأدباء لأحد أصحابه : لقد قطع فلان أسباب المودة بينه وبين
ذوى معرفته جميعاً إلا واحداً منهم .
قال له صاحبه : لعله ينتظر منه نفعاً ، فهو يستبقيه حتى يبلغ آخر ما عنده ،
ثم يلحقه بغيره من الناس .

كفاية

قال أحد الوزراء لبعض ثقاته : إني أريد أن أولى فلاناً بعض العمل .
قال له صاحبه : نعم ! بشرط أن تمسكه عندك وتبيع له أن يستخلف على
عمله من يستطيع أن ينهض به .
قال الوزير : وكيف كان ذلك ؟
قال جليسه : لأن فلاناً يحسن الانتفاع ، ولا يحسن النفع .

رق

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألا تفسر هذا الصراع الذى نحن فيه منذ أعوام طويلة ، والذى يفسد علينا أمورنا كلها ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وماذا تريد أن أفسر لك ! إنه الصراع بين الحرية التى تريد أن يكون جنودها أبطالاً ، والمنفعة التى تريد أن يكون جنودها أرقاء .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ومن أجل ذلك قلّ أبطال الحرية وكثر طلاب المنفعة ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هو ذاك !

رسالة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألا تنبئني عن كلمة « الرسالة » هذه التى يلوكها كل إنسان حين يريد أن يعبر عن المهمة ؛ فللكاتب رسالة ، وللشاعر رسالة ، وللعالم رسالة ، ولصاحب السياسة رسالة أيضاً وما أعرف أن اللغة تؤدي بكلمة « الرسالة » هذا المعنى الجديد ؟ !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هذه كلمة أذاعها فى لغتنا الحديثة مزاج من الجهل والغرور : الجهل باللغة العربية ، والغرور الذى يخيل إلى كل إنسان أنه نبي قد أرسله الله برسالة يعلم بها الناس شيئاً ، أو يحدث بها فى

الناس حدثاً . وإذا اجتمع الجهل والغرور على أمة ، دفعها إلى أكثر من الخطأ اللغوي واستعمال الألفاظ في غير مواضعها .

جحود

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : إني أقرأ في شعر « كاتول » اللاتيني :
« لا تعمل خيراً ، ولا تنتظر شكراً . فقد عمّ الجحود وأصبح الإحسان هباء !
ماذا أقول ! بل أصبح ثقلاً ومصدراً للضغينة . لقد بلوت هذه التجربة المرة
حين رأيت أشد الناس حقداً عليّ وبغضاً لي من كان يراني منذ حين مصدرَ
نعمته وحاميه الوحيد » .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لم تتغير أخلاق الناس منذ قال شاعرُك
اللاتيني هذا الشعر ، ولكنه صاحبُ عاجلة لم يكن ينتظر من الآجلة شيئاً .
أما نحن فقد أدبنا الله أدباً آخر ، وقرأ إن شئت قوله عز وجلّ :
« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

استخارة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لن أشهد محاضرة عامة بعد اليوم .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : حجراً محجوراً ، وما ذاك ؟
قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : سمعت اليوم محاضرة لم أسمع قط أسخفَ

منها ، ورحت إلى بيتي ضيقاً بما سمعت . وأردت أن أخرج من هذا الضيق ، فلم أكد أنظر في أول كتاب وقعت عليه يدي ، وكان ديواناً لشاعر لاتيني ، حتى رأيت يصور ضيق نفسه بهذه القراءات الأدبية العامة التي كانت تمتلئ بها روما في عصره . فقلت : إن الله قد خار لي وآذنى بأن من الحق إضاعة الوقت في الاختلاف إلى المحاضرات .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كان شاعرك اللاتيني هجاءً ، وكان يلتمس لنفسه المعاذير لما كان يطرق من فن الهجاء . فأما أنت فطالب علم تستطيع أن تختلف إلى المحاضرات جيدها وردئها ، ممتازها وسخيفها ؛ فإنك واجدٌ فيها بعض الفائدة ، تجدها فيما تسمع من المحاضر أحياناً ، وفيما ترى من المستمعين دائماً .

معبد

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لقد راقني ما أرى من سخرية الشاعر اللاتيني « جوفينال » حين يتحدث إلى المال بأن من حقه أن يقام له معبد كتلك المعابد التي أقيمت للسلم والشرف والعصيلة ؛ لأن المال يتفوق على هذه الخصال جميعاً . ما يمنع الناس أن يفكروا الآن في إقامة معبد للثراء ؟ قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أخشى ألا يجد الناس من الوقت ما يكفي لهذا التفكير فضلاً عن إقامة هذا المعبد ؛ فإني أرى الشعوب قد أخذت تكفر بالمال وتخرج على سلطان الثراء .

وصف

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : كأنما كان الشاعر اللاتيني « جوفينال »
 يصور عصرنا حين تحدّث عن هذا الغنى الذى تطيب نفسه عن مائة
 ألف درهم ينفقها فى الميسر ، ويبخل بقميص يقي خادمه ألم البرد .
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : ما دام فى الأرض سادة يملكون مئات
 الألوف ، وخدم لا يملكون شيئاً ، وفرص للهو ينفق فيها المال ، فكل العصور
 واحدة وإن طال الزمن !

هجاء

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أىّ فنون الآداب أحق أن يزدهر وينفقَ
 فى هذا العصر الذى نحن فيه ؟
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لا أدرى ! ولكننا فى عصر انتقال أشدّ
 فنون الأدب له ملائمة فن الهجاء .

رقابة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألا تعجبُ معى بقول الشاعر اللاتيني
 « جوفينال » :

« ما أرفقَ الرقابةَ بالغُرَبانِ وأعنفَها على الحمامِ ! »
 قال الأستاذُ الشيخُ لتلميذه الفتي : إن شاعركَ اللاتيني لم يردْ إلى رقابةِ
 المطبوعات ، وإنما أراد إلى رقابةِ الأخلاق . ومهما يردْ فهو صادقٌ كل
 المصدق .

خادم

قال الطالبُ الفتي لأستاذه الشيخ : ألم يدهشك ما قاله أحدُ الوزراء لبعض
 الصحفيين من أنه مستعدٌ للعمل في أيِّ وزارة ، كأنه الخادمُ يكلفه سيده
 ما يشاء فيقبل غير متكرِّه ولا متمنع ؟
 قال الأستاذُ الشيخُ لتلميذه الفتي : وما يدهشك من ذلك ! وإنما الوزير
 خادمُ الملك والشعب ، يضعه حيث يشاءان ، ويكلفه ما يحببان .
 قال الطالبُ الفتي لأستاذه الشيخ : ولكن الوزير من زينة الدولة .
 قال الأستاذُ الشيخُ لتلميذه الفتي : والخادمُ الأنيق من زينة البيت .

وعود

قال الطالبُ الفتي لأستاذه الشيخ : ألا يعجبك قول الشاعر اللاتيني
 « كاتول » :

« إن خليلته تقسم له على أنها لن تحب أحداً سواه ولو تقرب إليها
 كبير الآلهة ، ولكنه يرى وعود الخليلات مكتوبة على أجنحة الريح المنطلقة
 في الجو ، وعلى صفحات الموج الهائم في البحر المحيط » .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كما يعجبني قول كعب بن زهير :
وما تَمَسَّكَ بالوعد الذى وعدتُ
إلاَّ كما يُمَسِّكُ الماءُ الغرَابِيلُ
قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وأيّ وعود الرجال أشبه فى ذلك بوعود
النساء .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وعود الساسة حين يطلبون النيابة عن
الشعب ، أو النهوض بأعباء الحكم .

نزاهة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما أجملَ هذه الصورةَ التى أراها عند
الشاعر اللاتينى « جوفينال » حيث يقول :
« ما أكثر ما تمتدَّحُ النزاهة ، ولكنها على ذلك ترتعد من البرد » .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وقد مدحت النزاهةُ أثناء القرون منذ
شاعرك اللاتينى ، ولم تمتدَّحْ قط فى عصر من العصور كما تمتدَّح فى هذه
الأيام ، ولكنها على ذلك مقرورة ترتعد من البرد !

تخليط

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما بال فلان يخلط فى كتابه عن حياة
النبيِّ (صلى الله عليه وسلم) تخليطاً شديداً ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : عرض لما يحسنُ من الأمر ، وقال فيه بغير علم .

منفعة

كان يبغضه أشد البغض ، فأصبح يتهالك عليه أشد التهالك ، وكان فصيحاً كل الفصاحة في تعليل ما أظهر وأضمر من بغض ، وهو فصيح كل الفصاحة في تعليل ما يظهر من تهالك وحب ، وهو يصدق نفسه في الموقفين جميعاً . ولكن الناس لا يصدقونه ، وإنما يؤمنون بأنه أبغض للمنفعة وأحب للمنفعة ، وبأى وحى النفوس يكذب النفوس أحياناً . والغريب في هذا كله أن الناس أعلم منه بدخيلة النفس وسرّ الضمير .

أخلاق

أقبلوا يواسون منْ صرفَ عنه الحكم ، وكانوا جماعةً ضخمة يكاد يمتنع فيها التنفس لولا أنها كانت تسعى أو تزحف تحت السماء في الهواء الطلق وقد اكتظت بها الشوارع والميادين ، ووقفت لها حركة المدينة . قال قائل لصاحبه : أليس فلان قد صرف عن الوزارة أو صرفت عنه الوزارة ، فما هذه الجماعة الضخمة ؟ وما هؤلاء الذين يسعون إليه اليوم وكانوا لا يرونه أمس ولن يروه غداً إلا نكثوا رؤوسهم وغضوا أبصارهم ؟ قال صاحبه : صرف عنه الحكم اليوم وقد يرد إليه غداً ، وللناس آمال

لا يحبون أن تنقطع ، وليس كل الناس يحب رغبة أو رهبة ؛ فقد يكون منهم من يحب مخلصاً في الحب ، ومن يحامل أو يواسي مخلصاً في المجاملة أو المواساة .

قال ثالث : ومن الناس من يبغضك ولكنه يواسيك ؛ لأنه يريد أن يظهر لنفسه أن رجولته أكبر من البغض .

قال رابع : ومن الناس من لا يكبر في نفسه إلا إذا أظهر نفسه للناس كبيراً بعض الشيء .

قال خامس : عجبت للذين يشيعون الجنائز ويستطيعون أن يفكروا في شيء غير الموت .

كساد

قال أحد الصديقين لصديقه في بعض المحافل : ألا ترى إلى فلان يلحظ صديقه العزيز عليه ، الأثير عنده ، لحظاً خفياً ولا يحييه ؟ !
قال صاحبه : لأن رئيسه يرقبه من بعيد .

قال الصديق : وإذا ؟

قال صاحبه : وإذا فهو يثق من صديقه العزيز عليه ، الأثير عنده ، برحابة الصدر ، ويخاف من رئيسه ضيق الخلق .

قال الصديق : والشجاعة ؟

قال صاحبه : قد گسدت سوقها في هذه الأيام .

عفة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما أجملَ هذا البيت الذي ينسب إلى
عنتره :

يُخْبِرُكَ مَنْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ أَنَّنِي
أَغَشَى الْوَغَى وَأَعَفُ عِنْدَ الْمَغْنَمِ
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : إنه لجميل حقاً ولا سيما حين ينشر في
هذه الأيام .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : في هذه الأيام ! كيف تقول ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : أَلَسْتَ قَدْ تَعَلَّمْتَ فِي الْمَدَارِسِ وَالْجَامِعَةِ
أَنَّ الْأَشْيَاءَ تَتَمَايَزُ بِأَضْدَادِهَا ، وَأَنَّ شَاعِرًا قَدِيمًا قَدْ أَنْشَدَ :
* « وَالضُّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضُّدُّ ؟ ! » *

ثعالب

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما هذه النواطير التي قصد إليها المتنبي
في بيته الوقح :

نَامَتِ نَوَاطِيرُ مِصْرٍ عَنْ ثُعَالِبِهَا
فَقَدْ بَشِمُنْ وَمَا تَفَنَّى الْعَنَايِدُ
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : ما زال الحق عندكم وقحاً وقائله مسرفاً

في الجراءة . ولكن هذا لا يغير من الحق شيئاً ؛ فقد نامت نواطير مصر عن ثعالبها ، وما زالت هذه الثعالب تأكل وتشرب حتى يدركها البشم فلا يزيدها إلا نهماً ، كأنّ بطونها تلك الآنية التي أشارت إليها الأساطير اليونانية والتي ليس إلى ملئها سبيل . فأما النواطير فسل المتنبي عما أراد بها . أما أنا فأفهم منها الشعب ، وأظنك لا تنكر أن الشعب ما زال نائماً .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لو نام الشعب لما أكلت الثعالب ما يقيم أودها فضلاً عن أن يضطرها إلى البشم . ما زال الشعب يكّد ويكدح ، وما أعرف أن النائم يحسن كدّاً أو كدحاً .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : فقل إن شئت إن الشعب يقظان نائم : يقظان لأنه يعمل وينتج ، ونائم لأنه لا يحصى ثمار عمله من هذه الثعالب التي تأكل منها حتى تبشم ، فلا يزيدها البشم إلا نهماً .

فرار

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما هذا البيت الذي سمعتك تنشده حين فرغت من صحف الصباح :

تَرَكَ الْأَحِبَّةَ أَنْ يُقَاتِلَ دُونَهُمْ

نَجَا بِرَأْسِ طِمْرَةٍ وَلِجَامٍ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : ألم تتعلم في المدارس الثانوية أنه من شعر حسان يقوله في الحارث بن هشام حين شهد بدرًا مع قريش ، فلما دارت عليهم الدائرة فرّ وترك الأحبة صرعى لم يقاتل دونهم وفيهم أخوه

أبو جهل عمرو بن هشام ! وانظر حولك فسترى الذين يفرون عن الأُحبة حين يجدّ الجِدّ كثيرين ، يدفعهم إلى الفرار الرّعب حيناً ، والرّهب حيناً آخر .

كيد

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما هذا البيت الذي تكثّر ترديده منذ اليوم :

وَكَيْبَةٌ لَبَّسَتْهَا بَكَيْبَةٌ
حَتَّى إِذَا التَّبَسَّتْ نَفَضَتْ لَهَا يَدِي

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هذا بيت قاله الفرار السلمي ، وكان رجلاً يغرى بالحرب ، حتى إذا شبّ نارها وأذكى أوارها ، لاذ بالفرار وتغنى ببراعته في الأمرين جميعاً . وانظر حولك فسترى أن الذين يمكن أن تسميهم بالفرار السلمي كثيرون ، ولكنهم يفرون ويفرون ولا يتغنون . تبلدت قلوبهم فلا تحسّ ، وانعقدت ألسنتهم فلا تنطق ، وأشربت نفوسهم حب الكيد الصامت ، فهي تكيد ولكنها لا تقول .

كيد

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما تأويل قول الشاعر :

إِذَا رَامَ كَيْدًا بِالصَّلَاةِ مُقِيمُهَا
فَتَارَكُهَا عَمْدًا إِلَى اللَّهِ أَقْرَبُ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : تأويله أن تارك الصلاة عمداً يعصى الله معصية واحدة ، وأن مقيم الصلاة كيداً يعصى الله معاصي كثيرة ؛ يريد أن يخدع الله والله لا يخدع . ويريد أن يخدع الناس ، وخداع الناس إثم . ويريد أن يتخذ الله وسيلة والله غاية الغايات ، وإليه تبتغي الوسائل . فكيف به إذا اتخذ الله وسيلة لأعراض الدنيا وتضليل الناس ! صدق الشاعر :

إذا رامَ كيداً بالصلاة مُقيمها
فتاركُها عمداً إلى الله أقربُ

صفح

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إني أقرأ في بعض ما يقول « نيتشه » إن كثيراً من الناس لا ينبغي أن نصافحهم بيد رفيقة ، وإنما تبسط إليهم يد كبرئ الأسد ، وأريد أن تكون فيها مخالاب حادة . فمن عسى أن يكون هؤلاء الناس ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هم أكثر الذين تلقاهم مصباحاً وممسياً ، فيلاحظونك بعيون ملؤها الود ، ويسمون لك عن ثغور مشرقة رفيقة ومن ورائها الظلمة والعذاب ، وهم الذين يحسنون التودد إليك والتلطف لك ولا سيما حين تحدث الأحداث وتلم الخطوب .

ولكن « نيتشه » يا بني صاحب قسوة وسطوة وعنف ، فاقرأ إن شئت قول الله عز وجل : « وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » .

سخريّة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : قرأت فيما قرأت من شعر « كاتول » مقطوعةً يهبي فيها نفسه للموت ، بل يحثّ فيها نفسه على الموت ؛ لأن فلاناً وفلاناً من مواطنيه قد رقيّا إلى منصب القنصل . فأعجبني سخريته اللاذعة .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : كما أعجبني قول الشاعر العربي :
 تَأَهَّبُوا لِلْحَدَثِ النَّازِلِ
 قَدْ قُرِئَ الشَّعْرُ عَلَى كَامِلٍ

تقدير

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما بال الناس يضطربون للتولية والعزل في مصر أكثر مما يضطربون لهما في البلاد الحرة الأخرى ؟
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لأنهم لا يزالون قداماء العقل والشعور ، يرون في التولية نعمة وفي العزل نقمة ، ويذكرون نكبة البرامكة وما يشبهها من أحداث الدهر القديم . فانتظر بهم حتى يذوقوا طعم الديمقراطية الصحيحة ، فيومئذ سينظرون إلى التولية والعزل كما ينظرون إلى الجو والمطر .

ابتسام

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أليس يعجبك قول المتنبي :

وَلَمَّا صَارُ وُدُّ النَّاسِ خِيًّا

جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامٍ بابتسام

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : بلى ! إنه ليعجبني كل الإعجاب

ولا سيما حين ينشده الذين يصوّرون الحبّ بابتسامهم أكثر مما يصوّرون
الودّ الصحيح . وأكبر الظن أن المتنبي نفسه كان من هؤلاء حين قال
هذا البيت .

تملق

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألا ترى إلى فلان قد كان أبعد الناس

عن التملق ، فلما تقدمت به السنّ جعل إمعانه فيه يزداد من يوم إلى
يوم ؟ !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : كائن يعتمد على نفسه ، ما واثقه قوة الشباب ،

فلما أدركته الشيخوخة اتخذ من التملق عصاً يدبّ عليها .

كذب

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألا يغيظك هذا الشاء الذى لا يصدّقه قائلوه ، ولا سامعوه !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : كلا يا بنى ! لأنى أعلم أن الناس أحرارٌ فى أن يقيموا حياتهم على الكذب ، ونحن أحرارٌ فى أن نعرف ذلك منهم أو ننكره عليهم .

مروءة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألا تحدثنى عما ألمّ بقوم كانوا كراماً أعزّةً ينهون عن الضعة ، وينأون عن الصغار ، فلما أدركتهم الشيخوخة أقبلوا متهاكين ، على ما كانوا يكرهون ذكره من صفات الأمور ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : إن تقدّم السنّ لا يضعف الجسم وحده ولكنه يضعف أيضاً العقول والنفوس والمروءة ، إلا قليل من الناس يكادرن يحصّون فى كلّ جيل .

نفاق

كلفَ عملاً لا يحسنه ولا يستطيع النهوض به ، يقصّرُ به عن ذلك عقله وسنه جميعاً ، ولكنه منعَ أجراً ضخماً ، ورفّع إلى مكان ممتاز ، فشك

غير طويل بين الأمانة التي تحرمه ما يعرض عليه من خير ، والخيانة التي ترضى طموحه إلى المال والامتياز ، ولكنها تضيع على الشعب حقوقه ومنافعه ؛ فآثر الثانية لأنه يحرص على إرضاء أهوائه وشهواته أكثر مما يحرص على إرضاء الحق وإيثار المنفعة العامة .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ومع ذلك فالناس يلقونه بالتجلة ويشنون عليه بالسنتهم وأقلامهم .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : نعم ! ولكنهم يزدرونه في نفوسهم ، ويمقتونه في ضمائرهم ، وتلعنه قلوبهم . وهل رأيت أمور الناس تدور على غير الكذب والنفاق ! !

نفاق

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : من عسى أن يكون هذا الرجل الذي يقول فيه خالد بن صفوان إنه ليس له صديق في السر ولا عدو في العلانية ؟ قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : قد علمت أنه شبيب بن شيبه . قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لقد والله علمت ذلك وكأني لم أحسن توجيه السؤال ، فعلمني كيف يستطيع الرجل أن يضع نفسه بحيث لا يكون له صديق في السر ولا عدو في العلانية .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : سبيل ذلك أن يملأ الرجل قلبه أثره صادقة لا تفارقه ، ويسبغ على وجهه ابتسامة كاذبة لا تفارقه ، فهو إن فعل ذلك لم يحب إلا نفسه في السر والعلانية ، ولم يبغضه الناس في ظاهر ما يكون بينهم وبينه من الصلة .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وتظنّ ذلك يسيراً سهلاً ؟
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هيهات ! إن من النفاق ما هو أصعب
 احتمالاً على أصحابه من الصراحة .

نفاق

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : متى يحسنُ رأيك في الناس ؟
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : متى حسنَ رأى الناس في أنفسهم .
 قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لم أفهم عنك .
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لو حسنَ رأى الناس في أنفسهم لما أقاموا
 حياتهم على النفاق .

حياء

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أتعرف أبلغ من هذا البيت أثراً في النفس :
 وإني لأستحي أخى وهو ميتٌ
 كما كنتُ أستحييه وهو قريبٌ
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : نعم ! قول لبيد :
 ذهبَ الدين يُعَاشُ في أكنافهم
 وبقيتُ في خلفٍ كجلد الأجرَبِ
 قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : فإني لا أفهم عنك ما تريد منذ اليوم !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : فإن الذين كانوا يستحيون إخوانهم أميًّا كما كانوا يستحيونهم وهم أحياء قد ماتوا ، كما يقول العامة الآن . وبقي بعدهم هذا الخلفُ الذي يشبهه ليبدُ بجلد الأجرَب والذي لا يستحي من حي ولا من ميت ، ولا يستحي من نفسه ولا من الله .

إشاعات

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : إلامَ أراد الشاعر القديم حين قال :
 يقولون أقوالاً ولا يعلمونها
 فإن قيلَ هاتوا حَقُّوا لم يُحَقِّقُوا
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : أراد إلى مثل ما نغرق فيه بين حين وحين من الباطل المذاع ، والزور المشاع ، والبهتان الذي تفسدُ له الحياة العامة ، وتسوء له الصلات بين الناس ، وتقوم عليه مع ذلك أو من أجل ذلك أمور الأمة .

نهضة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما تقول في شعب يجري أمره على جهل الشباب وطيشهم من جهة ، وعلى ضعف الشيوخ وحمقهم من جهة أخرى ؟ !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : أقول إنه شعب ناهض يسعى إلى المجد بخطو سريع !

حقوق

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ . متى تصلح الدنيا ويصلح أهلها ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لا أدري ! وما أحسب أن الدنيا تصلح
أو أن أهلها يصلحون في يوم من الأيام . ولكن هناك مقداراً من الخير لا يستقيم
للناس بدونه أمر .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وما ذاك ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : ألا تتخذ حقوقُ الشعب ومنافعه مطيةً
إلى قضاء المآرب وإرضاء الشهوات .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وهل إلى ذلك من سبيل ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : نعم ! يوم يعرف الشعب حقوقه ومنافعه ،
ويبين لساسته وقادته أنه عليها حريص ولها مؤثر ، وأنه مستعد لأن يضحى
في سبيلها بما تضحى به الشعوب الكريمة في سبيل الاحتفاظ بالحقوق
والمنافع العامة .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : هيات !
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : قد كنت أظن أن هذه الكلمة إنما تجرى
على ألسنة الشيوخ ، فأما ألسنة الشباب فتجرب عليها كلمات أخرى !

صدق

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أَلَسْتُ قد علمتنا صباح اليوم أن الخبرَ شيء
يحتمل الصدق والكذب دائماً ، وأن هناك مَرَجَحات تميل به إلى الصدق
حيناً وإلى الكذب حيناً آخر ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : بلى ! وما إعادتك في المساء لحديث جرى
في الصباح ؟

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : فإنك قد نسيت مرجحاً يرتفع بالأخبار
إلى الصدق الذي لا شك فيه .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وما ذاك ؟

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : هو بطش الحاكم المستبد فيما مضى ،
وظروف الحرب في هذه الأيام . وما أذكرني ذلك إلا قول أبي العلاء .

جَلُّوا صَارِمًا وَتَلَّوْا بَاطِلًا

وقالوا صَدَقْنَا ، فَقُلْنَا : نعم !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : فإن صارم الحاكم المستبد وحكم الحرب
لا يصدّقان خبراً كاذباً ، ولا يكذبان خبراً صادقاً ؛ لأنهما يستطيعان أن
يراقبا القلم واللسان ، ولا يجدان سبيلاً إلى مراقبة النفوس والقلوب .

صلة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : يُروى عن عثمان - رحمه الله - أنه قال : « كان عمر يمنع أقرباءه ابتغاء وجه الله ، وأنا أعطى قراباتي لوجه الله ، ولن يرى مثلُ عمر » . فأى المذهبين أحري أن يتبع ؟ !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لقد أنباك بذلك عثمان نفسه حين قال : « ولن يرى مثل عمر » . والأمر أظهر من أن يحتاج إلى تأويل ؛ فمن الخير أن يعطى الرجل أقرباءه وأصدقاءه ومن لا يمت له بصلة ابتغاء وجه الله ، على أن يكون العطاء من ماله الخاص لا من مال الدولة ؛ لأن مال الدولة مواضع ينبغي أن ينفقَ فيها ، وليس من هذه المواضع إعطاء الأقرباء والأصدقاء .

ضعة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما بال قوم تسمو بهم منازلهم وثقافتهم إلى الرفيع من الأمر فلا يأتون إلا ما فيه ضعة وتسفل وانحطاط ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : أولئك قوم يتفوق فيهم سلطان الغرائز على سلطان الحضارة ، وقد خلقوا للضعة ، فلما حاولت الحضارة أن ترفعهم ثقلت عليها عقولهم وقلوبهم ونفوسهم وخفت أجسامهم ، فارتفعت هذه الأجسام إلى المقام الممتاز وظلت العقول والقلوب والنفوس حيث خلقت ،

تجذبها الحضارة إلى أعلى فلا تنجذب ، وتجذبها الغريزة إلى أسفل فتسبغ وتطيع .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألا ترى أن الحياة الديمقراطية تتكشف عن كثير من هؤلاء ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : ذلك أخرى أن يكون ؛ لأن الديمقراطية تلغى القيود وتيسر الظهور لما خفي من أمور الناس ، والارتفاع لمن حقه أن يظلّ وضيعاً .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وأنت مع ذلك تحب الديمقراطية وتؤثرها !!

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : نعم ! لأنّ حسناتها أكثر من سيئاتها ، ومنافعها أكثر من آثامها . والخير الخالص لم يتح للناس في هذه الحياة .

نكسة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : قد كان فلان أياً حمياً ذكياً مرتفعاً عما يؤذى كرامة الرجل الكريم ، فلما بلغ السبعين ابتذل من نفسه ما لم يكن للابتذال سبيل إليه .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : ردّته السّ إلى طفولة العقل ، وحفظت عليه رجولة الجسم ، فأدركه شيء يشبه النكسة .

تحكم

فرّق أصحابه للسطو ، وضرب لهم موعداً لاقتسام الغنيمة ، فجاءه بعضهم بألف ، وجاءه بعضهم بخمسمائة ، وجاءه بعضهم بأكثر من ذلك وأقل .

فلما أراد القسمة زعم صاحب المائة أن حظه يجب ألا يقلّ عن حظ صاحب الألف . وهمّ القوم أن يجادلوه ، فاضطّروهم إلى الصمت والإذعان ؛ لأنه أنذرهم بأن يرفع أمرهم وأمره إلى الشرطة .

ابتسامة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أليس يقال إن ابتسام الثغر آية على ابتسام النفس ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وقد يقال إن ابتسام الثغر آية على عبوس النفس .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : فقد رأيت على ثغر فلان ابتسامة لم أستطع لها تأويلاً .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : في ذلك الاجتماع الذي شهدته اليوم ، أو لم تسمع لما كان يقال ؟ أو لم ترَ إلى ما كان الناس يأتون من حركات ؟ قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : بلى ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لقد كنت تستطيع أن تقرأ في تلك
الابتسامة التي رأيتها على ثغر فلان استخفافه بكل ما كنت تسمع ، وبكل
ما كنت ترى ؛ لأنه كله لم يكن يصور إلا الكذب ، والكذب الذي يريده
أصحابه عن عمد ، وهم يعلمون أنهم يكذبون .
قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وهل تقوم هذه الاجتماعات إلا على هذا
الكذب ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فإذا رأيت فلاناً يبتسم لها فاعلم أنه
يستخف بها .

ضحك

قال أستاذ محنك وهو يبتسم لأستاذة محنكين لم يكونوا أقل منه ابتساماً :
لقد تجاوزنا وقت الشك . . .
ولم يستطع أن يمضي في الحديث لأنه أغرق في الضحك .
قال الأستاذة المحنكون : نعم ! ووصلنا إلى اليقين القاطع
ولم يستطيعوا أن يمضوا في القول لأنهم شاركوا أصحابهم في ضحكه
الذي كان يغرق فيه .
وبال على صاحبي يسألني : أضحكون من أنفسهم أم يضحكون من
الناس ؟

ولم يستطع أن يمضي في الحديث لأنه أغرق في الضحك .
قلت لصاحبي : هم يضحكون من أنفسهم ومن الناس .

ولم أشارك صاحبي في ضحكته الخافت ، ولم أشارك القوم في ضحكهم
الصاحب ، وإنما لبثت باسماء أرثى لهم جميعاً .

جلاء

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى مصر تتوسط في جلاء الفرنسيين
عن سوريا ولبنان !
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هذا حسن ، وأحسن منه أن تتوسط
مصر في جلاء البريطانيين عن أرض الوطن .

توبة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : إلام أراد صاحب هذا البيت :
ألا قُلْ لأصحاب المخائض أهملوا
فقد تاب مما تعلمون يزيد
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : ذاك لص كان يسرق الإبل ، وكان
الناس يخافونه على أموالهم فيحتاطون لحراستها ؛ فهو يعلن إليهم أنه قد تاب
وأقصر عما يخافون ، وليس كل لص قادراً على التوبة .

توبة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : إلامَ أراد صاحب هذا البيت :
 وَإِنَّ أَمْرًا يَنْجُو مِنَ النَّارِ بَعْدَمَا
 تَزَوَّدَ مِنْ أَعْمَالِهَا كَسَعِيدُ
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : أراد إلى أن حمل النفس على التوبة
 عن الإثم شيء عسير ، وإلى أن التوبة إن صحت فقبولها وردها إلى الله .
 فمن قارف الإثم أو تورط فيه ثم تاب وقبل الله توبته فهو السعيد .
 قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وأنى له أن يعلم أن الله قبل توبته
 أو ردها ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : سيعلم ذلك حين تعرض عليه أعماله
 يوم القيامة ؛ فهو إذاً لن يحقق هذه السعادة في الدار الأولى .

فن

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما بال فلان ينسى دار التمثيل إذا
 صرف عنه السلطان ، فإذا رُدَّ إليه ألح في زيارتها ؛ ولقد رأيتُه أمس وأول
 من أمس وأول من أول من أمس ، فذكرت قول الشاعر القديم :
 هَجَرْتُكَ حَتَّى قِيلَ لَا يَعْرِفُ الْهَوَى
 وَزُرْتُكَ حَتَّى قِيلَ لَيْسَ لَهُ صَبْرٌ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لأنه يحب أن يستمتع بالفن على ألا يؤدى لذلك ثمناً .

كساء

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إذا صرف فلان عن السلطان لم يره أحد ، فإذا رُد إلى السلطان رآه كل الناس
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لأنه يرى شخصه عورة لا ينبغي أن تظهر إلا أن تتخذ من السلطان كساء .

فصاحة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إذا صرف فلان عن السلطان لم يسمعه أحد ؛ فإذا رُد إلى السلطان أكثر القول حتى أمل الناس .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لأن له لساناً تطلقه التولية ، ويعقله العزل !

فصاحة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إذا صرف فلان عن السلطان أطلق لسانه بالشر في الناس جميعاً ؛ فإذا رد إليه أطلق لسانه بالثناء على الناس جميعاً .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لأنه يسخط فلا يقول إلا شراً ، ويرضى
فلا يقول إلا خيراً ، وقد حيل بينه وبين خير الأمور .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : خير الأمور ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : ألم تعلم أن خير الأمور أوساطها !

أعجوبة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما أكثر ما يقول فلان في علوم اللغة وهو
أجهل الناس بها ، حتى استيقن أنه من أقدر الناس على التصرف فيها !
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : كأنما كان أبو العلاء يفكر فيه حين
قال :

هذا أبو القاسم أعجوبة
لكل من يدرى ولا يدرى
لا يقرض الشعر ولا يقرأ الـ
قرآن وهو الشاعر المقرئ

تملق

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى إسراف « مارسيل » في تملق
مولاه قيصر حين زعم له أن خزائن الآلهة لا تكني لمكافأته على ما قدم من
خير ؟ !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : رأى قيصر فخافه وطمع فيه ، ولم . الآلهة فلم يحفل بهم . وأكبر الظن أن هذا الوثني الذكي كان يسخر من آلهته ومن قيصر جميعاً .

تملق

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ . ألم تر إلى هذا الشاعر اللاتيني الثرثار « مارسيال » كيف يسخر من مصر وأهرامها ليشيد بهذا القصر الذى شاده قيصر ؟ ! ومع ذلك فقد مضى قيصر واندثر قصره ، وما زالت الأهرام باقية على الدهر .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إن هذا الشاعر يابنى لم يسخر من الأهرام التى شادتها أيدي المصريين وحدها ، ولكنه سخر من الجبال التى شادتها يد الله ، وإن تملق القياصرة ليكلف الشعراء شططاً عظيماً .

نقمة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما أكثر ما اعتذر النابغة إلى النعمان ! فماذا جنى الشاعر أو ماذا نقم النعمان ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : جنى الشاعر الجناية الكبرى ؛ فقد كان حراً شاكراً لنعمة أسداها إليه غير النعمان . ونقم النعمان من شاعره أنه لم يخلص له من دون الناس . ألم تقرأ قول النابغة :

ولكنني كنتُ امرأً لى جانبُ
 مِن الأرضِ فيه مُستَراذٌ ومَذْهَبُ
 ملوكٍ وإخوانٍ إذا ما مَدَحْتُهُمْ
 أُحَكِّمُ في أمَوالِهِم وأَقْرَبُ
 كصُنْعِكَ في قومٍ أراكِ اصْطَفَيْتَهُمْ
 فلم تَرَهُمُ في شُكْرِ ذلكِ أَذْنِبُوا !

عزة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أترى الحُلَفَاءَ يَفُونُ بِمِثَاقِ الأَطلَنتَى ؟
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : كما وَفَوْا بِمَبَادِئِ الرِّيسِ « ولسن » !
 قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وإذا ؟
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وإذا فالشعب الذى لا يرجو منحا
 ولا يخشى منعا ، وإنما ينصفُ نفسه وينصف من نفسه ، هو الشعب
 العزيز الكريم .

توحيد

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أليس مما يملأُ القلوبَ غبطةً والنفوسَ
 رضا أن نرى مصرَ تعملُ على توحيدِ كلمةِ العربِ ؟
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : بلى ! وأدعى من ذلك إلى الغبطة والرضا
 أن توحد مصر كلمة أبنائها .

جبن

قال موظف كبير لبعض رواده السابقين : أحق أن ببابك رَصداً يرقبون
المقبلين عليك والمنصرفين عنك ؟
قال الرئيس السابق : نعم ! أى رَصداً ! إنهم لا يغفلون عن طارق بالليل
أو زائر بالنهار .
قال الموظف الكبير . فاعذرني إن قصرت عن زيارتك .
قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لا أعلم أن بباب فلان رَصداً أيقاظاً
أو نياماً .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : أراد فلان أن يريح صاحبه من مشقة
السعي إليه ، وأن يريح نفسه من لقاء الجبناء .

ملق

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما بال قوم من العلماء يتحسسون من
رأى الحكام في العلم ليتخذوه لأنفسهم رأياً .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : يريدون ألا يستأثر الناس من دونهم برضا
الحكام .

ملق

رأيت قوماً يأكل الملق مروءتهم ، كما تأكل النار الحطب ، وكما يأكل الحسد قلب الحسود .

نحو

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أَوْصَدَقِ النحويين وأصحاب اللغة أم أصدق فلاناً مع أنه لا يقول في النحو واللغة إلا خطأ ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : صَدَقَ فلاناً لأنه نحوى لغوى بحكم القانون .

مثل

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فسر لي هذا المثل العربى القديم :
« البَسْ لكل حَالَةٍ كَبُوسَهَا
إِمَّا نَعِيمَهَا وَإِمَّا بَوَسَهَا »
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : تريد تفسير الجدة أم تفسير الهزل ؟
قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أريد تفسير الجدة .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فكن حُرّاً كريماً إن أذنت لك نظم

الحكم أن تكون حراً كريماً ، وكن عبداً ذليلاً إن اقتضتكَ نظم الحياة أن تكون ذليلاً ، واتخذ لنفسك ثوبين : ثوب النعيم تلبسه حين يؤذن في الناس بالحرية ، وثوب البؤس تلبسه حين يؤذن في الناس بالرق . وأى الثوبين لبست ، فكن عنه راضياً وبه مجبوراً .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : فإن أردت تفسير الهزل ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : فكن رجلاً حراً كريماً لا تبطره النعمة ، ولا تغض منه النقمة . وإنك لتعلم أن الذين يحسنون الهزل قليلون .

مثل

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم يكن يقال في قديم الزمان : إن الناس على دين ملوكهم ؟ !
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : كان ذلك يقال قبل أن تتحرر الشعوب ، فأما الآن فأحرى أن يقال إن الملوك على دين شعوبهم .

مثل

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألا يزال من الحق أن الناس على دين ملوكهم ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : بلى ! وعلى دين رؤسائهم أيضاً في بعض البلاد .

مبدأ

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما بال فلان يتملق حزْبَ الكثرة وحزْبَ القلة جميعاً ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لأنه يحتاج إلى الحزبين ، ولأن الحزبين يحتاجان إليه .

مبدأ

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : إني أرى فلاناً يتملق البيئات : السياسية ، مهما تختلف .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لأن الأيام حولٌ ، ولأن الأرض تدور .

زهد

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما بال فلان يأخذنا بالقناعة ويحشم نفسه أهوال الجشع ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : يؤثركم بالراحة ، ويشقّ على نفسه بالكدّ والجهد .

سلطان

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : **نَقَلَ** إلى فلان أنك قلت فيه ما يؤذيه
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : **إِنْ** أَرْزَقَ السلطان فلن يؤذيه مني شيء
مهما أَقَلَّ فيه ، وإن أَحْرَمَ السلطانَ فسَيؤذيه مني كل شيء .

وعظ

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : **إِنْ** فلاناً لحكيم القول ، أحمقُ السيرة .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : **لَأَنَّ** لسانه يصدّر عن عقله ، ولأن
سيرته تصدر عن قلبه ، ولأن الأسباب بين عقله وقلبه مقطوعة لا سبيل
إلى أن تتصل .

وعظ

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : **إِنْ** فلاناً ليأمرنا بالمعروف ويدعونا إلى
الخير حتى نجبه ، وإنه مع ذلك ليمعن في الإثم ويتورط في الخطيئة
حتى نبغضه .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : **أُتِيحت** له القدرة على أن يصدّقكم ،
ولم تتح له القدرة على أن يصدّق نفسه .

وعظ

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لا أعرف أفصح من فلان إذا وعظ ،
ولا أعرف أبعد منه عن سيرة الرجل الكريم .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : إن بعض الفن نفاقٌ يبرعُ فيه صاحبه .
حتى يسحر الناس ، دون أن يكون بين هذا الفن وبين قلبه سبيل .

زهد

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما أكثر ما يبغيض فلانٌ إلى الناس
أعراض الدنيا ! وما أكثر ما يتهالك على أعراض الدنيا ! وما أجدره أن
يقول فلا يصدقه أحد ، وأن يدعو فلا يستجيب له أحد ؛ لأن الناس
يرون مكانه من هذا التناقض .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وما يدريك ! لعله يصدق في النصيح
للناس ، ويكذب في إغراء نفسه بالمال . خذ منه كلمة الحق ، وهبه
كالصيرفي المزيف تكثر عنده الدراهم والدنانير الزائفة ، ولكنه لا يعدم
درهماً جيداً أو ديناراً عيناً .

زهد

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لا أسمع من فلان إذا لقيته إلا النصيح
لى بالسمو إلى الروح والتنزه عن المادة ، ولا أقرأ له فصلاً إلا رأيته يبحث
الناس على السمو إلى الروح والتنزه عن المادة ، وهو على ذلك غارق في
المادة إلى أذنيه .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : ومن أجل ذلك أبغض المادة التي توشك
أن تقتله ، فنصح للناس بالبراءة منها والتنزه عنها ؛ ولولا بغضه للثراء لما نصح
لكم بالتجافى عنه .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وما يمنعه أن يتجافى عن ثرائه ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : يمنعه من ذلك رجولته التي تفرض عليه
احتمال المحنة والصبر على العذاب إمعاناً في طاعة الله عز وجل ؛ فالله يمتحن
الأغنياء بالغنى ، كما يمتحن الفقراء بالفقر .

وأفة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لو قسم فلان ريع ثروته على أهل قريته
لأغناهم ، ولظل بعد ذلك أعظمهم ثراء .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هو أرأف بأهل قريته من ذلك ،
فحسبه أن يحتمل وحده ثقل الثراء .

عطف

قال الطالب الفقى لأستاذه الشيخ : لو خرج فلان لأهل قريته عن بعض ماله ليسقيهم ماءً نقياً لداد عنهم المرض ، ولاستفاد زرعهم من صحة أجسامهم .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقى : هو أعطف عليهم من ذلك . ألم تعلم أن المرض محنة يثاب عليها المريض إن أحسن احتمالها ، وأن الصحة فتنة يعاقب عليها الصحيح إن أساء استعمالها ؛ فهو يؤثّر أهل قريته بالشواب ويعصمهم من الفتنة .

زهد

قال الطالب الفقى لأستاذه الشيخ : لم أر أشد من فلان تزهيذاً للشباب فى المال ، ولم أر أشد منه حرصاً على جمع المال .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقى : وما تنكر من ذلك ! إنه يؤدى إلى الشباب حقهم من النصح الصادق ، وإلى نفسه حقها من الثراء العريض . قال الطالب الفقى لأستاذه الشيخ : فهلا نصح لنفسه بمثل ما ينصح به للناس !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقى : ألم تقرأ بيت البردة :
أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ لَكِنْ مَا اتَّعَمَرْتَ بِهِ
وَمَا اسْتَقَمْتُ فَمَا قَوْلِي لَكَ اسْتَقِمْ

إنما الحق على الشباب أن يتلقوا كلمة الخير ولو من الشرير ، وكلمة
البر ولو من الفاجر ، وكلمة الزهد ولو من الشره المسرف في الطمع . لهم
خير ذلك ، وعلى من يكذب عليهم إثم ما يقتrof من الكذب .

جاه

قال الطالب الفنى لأستاذه الشيخ : ما أجدرنا أن نتمثل في كثير من الأحيان
بقول « مارسيال » لبعض أصحابه : « إن هذا الذى يعلن إليك المودة والحب
إنما يحب مائدتك المثقلة بالطيبات . ولو قد أثريت وأثقلت مائدتى بلذيد
الألوان لأصبح لى صديقاً » .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفنى : نعم ! ولا سيما إذا وضعنا الجاه مكان
المائدة ، ووضعنا المنافع العاجلة مكان ألوان الطعام . فما أكثر الذين
يغيرون أصدقاءهم بتغير الوزارات !

سؤال

قال الطالب الفنى لأستاذه الشيخ : أحب أن تجيب عن هذا السؤال الذى
ألقيه « مارسيال » على بعض أصحابه مداعباً .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفنى : وما ذاك ؟

قال الطالب الفنى لأستاذه الشيخ : ذاك أن فلاناً باع مزرعته واشترى بثمنها
غلاماً حسناً ، وأن فلاناً باع غلامه واشترى بثمنه مزرعة خصبة ؛ فأحدهما

يحب ، والآخر يزرع الأرض ، فأيهما أحسن حالاً ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كل ميسر لما خلق له .

قرض

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما بال قوم يعمرون الحانات والمراقص ،
ويقترفون السيئات والآثام ، فيشربون ويطربون ويلعبون ، ويريدون بذلك
كله إغاثة الملهوف ، وإطعام الجائع ، وإعانة البائس المحروم ؟
قال أحد الحاضرين : أولئك قوم يحادون الله ويؤادون الشيطان .
قال الآخر : أولئك قوم يتخذون غضب الله القوي وسيلةً إلى رضا
الإنسان الضعيف .

قال ثالث : أولئك قوم يقرضون الله بالربا ، ولكنهم يتعجلون الفائدة
في الدنيا مخافة أن تضع عليهم في الآخرة .
قال رابع : أولئك قوم وثقوا بالحياة العاجلة فاغتنموا لذاتها وشكوا في
الحياة الآجلة فلم ينتظروها .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أولئك قومٌ يحسنُ أن تقرأوا فيهم إن
شتم قول الله عز وجل .

« أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا
فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي
الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ » .

موسيقى

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم يبلغني أنك لا تأوى إلى غرفتك إذا تقدم الليل حتى تسمع ألحاناً من الموسيقى ، ففهم هذه العادة ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : أغسل بها نفسي من أضرار الحياة الاجتماعية .

سعادة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أليس جميلاً قولُ « مارسيال » لأحد أصدقائه : إنه شقى بسعاده .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : بلى ! كما أن بعض الناس يسعدون بشقائهم .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ . الحق أنى لم أفهم عنك ، كما أنى لم أفهم عن « مارسيال » وإنما تعجبني صيغتك ، كما تعجبني صيغته لما أرى فيهما من المطابقة .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : الأمر أدنى إلى الجد من المطابقة ؛ فالسعيد يشقى بسعاده لأنه يحتاج منها إلى أكثر مما ينالُ ، والشقى يسعدُ بشقائه لأنه يجد هذه اللذة البغيضة التي يشتقها من الغيظ لنعمة الناعم ، وترّف المترّف ، والتي يمكن أن تسمى حسداً . ولكلا هذين الأمرين

اسم بغيضٌ في الأخلاق ؛ فشقاء السعيد بسعادته بطرٌ ، وسعادة الشقي بشقائه حسدٌ .

عجز

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما تأويلُ هذا البيت من شعر الحماسة
فَازْجُرْ حِمَارَكَ لَا يَرْتَعُ بَرَوْضَتَنَا
إِذَا يُرْدُ وَيَقْدُ الْعَيْرُ مَكْرُوبُ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هذا مثلٌ أراد به الشاعر تصوير قدرته على عقاب من يعتدى عليه . وما أكثر الحمير التي ترتع في رياض الناس هذه الأيام ، فلا تجد من يردها ، أو يصدّها ، أو يملك لها عقاباً .

زيارة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : قد كان فلان يكثر من زيارة فلان قبل أن يتنكر له السلطان ، فلما أعرضت عنه الدنيا أعرض معها .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لا ! ولكنه يزوره وبطيل الإقامة عنده إذا جن عليه الليل ، لأن آية النهار مبصرةٌ ؛ فإذا انصرف أنشد قول المتنبي في بعض مدائحه لكافور :

أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي
وَأُنْتَنِي وَيَبْأُصُ الصُّبْحُ يُغْرِى بِي

تاريخ

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أتصدق أن التاريخ يعيد نفسه ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لا أصدق ذلك ولا أكذبه ، ولكن !
لم تريد ؟

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أريد أن التاريخ سخيْفٌ لا خيرَ فيه
إن كان يعيد نفسه ؛ لأن ذلك يدل على أنه لم يستطع للناس وعظاً ولا
إصلاحاً .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وما ذنبُ التاريخ إذا كانت طبيعة
الناس لا تتعظ ولا تقبلُ الإصلاح ! فقلْ إن التاريخ سخيْفٌ ، كما أن
الموت سخيْفٌ ، لأن الموت يعيش بين الناس ولا يبلغ من نفوسهم موعظةً
ولا إصلاحاً .

نفوس

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما تقول في هذا البيت الذي لا يسأم
الناس إنشاده من شعر المتنبي :

وإذا كانتِ النفوسُ كياراً

تعبتُ في مُرادِها الأجسامُ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وماذا تريد أن أقول فيه ؟ إنما هو حكمة

من هذه الحكم التي يرسلها المتنبي فتطرد أحياناً ، وتقصر عن الاطراد أحياناً أخرى ، فمن كبار النفوس ما تتعب الأجسام ، ومنها ما لا يمش الأجسام بتعب قليل أو كثير .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : فلو أن المتنبي وضع النفوس الصغار موضع النفوس الكبار ، فكيف كان يقول ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : كان يقول :
وإذا كانت النفوسُ صغاراً

نَعِمَتْ في مُرَادِهَا الأجسام
وكان ذلك أخرى أن يكون مطرداً مصيباً . والشئ الذي لا شك فيه هو أن المتنبي أخطأ الغرض الذي كان ينبغي أن يرمى إليه .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وما عسى أن يكون هذا الغرض ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هو أن كبار النفوس تحمل صغارها أعباءً ثقالاً لأنها تسخرها لما تريد من عظيم الأمر ، وأن صغار النفوس تكلف كبارها آلاماً ممضة لأنها تقصر عن أن تبلغها من عظيم الأمر ما تريد .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وإذا ؟ ١
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وإذا ، فقد خلق الناسُ ليكون بعضهم لبعض مصدر محنة وشقاء . وأصاب زياد حين قال :
« نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُعِينَ كُلًّا عَلَى كُلِّ »

صمت

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألا تفسر لي هذا البيت الذي تكثر
إنشاده بين حين وحين :

ولو أن قومي أنطقني رماحهم
نطقْتُ ولكنَّ الرِّمَّاحَ أَجَرَّتِ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هذا بيتٌ رائع ، صور به عمرو بن
معدى كرب خيبة أمله في قومه حين لقوا عدوهم ثم فروا ولم يبلغوا منه شيئاً ،
وكان عمرو بن معدى كرب شاعر قومه ، فكان أحبَّ شيء إليه أن يملأ
الأرض غنائاً بمفاخرهم ومآثرهم . وأى شيء أشقَّ على الشاعر من أن يضطر
إلى الصمت !

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وما تمثلك أنت بهذا البيت بين حين
وحين ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : أتظن أن الناس من حولنا يبلون البلاء
الحسن في كل مواطن الجد ! !

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : هيهات !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : فأنشد مثلي قول عمرو بن معدى كرب :

ولو أن قومي أنطقني رماحهم
نطقْتُ ولكنَّ الرِّمَّاحَ أَجَرَّتِ

ثقة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وَثِقَ فَلَانٌ بِأَصْدِقَائِهِ حِينَ لَمْ يَكُنْ مُحْتَاجاً إِلَيْهِمْ ، فَلَمَّا جَدَّ الْجَدُّ أَخْلَفَتْ الْأَيَّامُ ظَنَّهُ ؛ فَهُوَ بِذَلِكَ شَقِيٌّ ، وَلَهُ مَحْزُونٌ .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : فَاعْتَبِرْ أَنْتَ بِمُحْتَنِهِ فِي أَصْدِقَائِهِ ، وَأَقِمْ رَأْيَكَ فِي النَّاسِ عَلَى هَذَا الْبَيْتِ الرَّائِعِ الْقَدِيمِ :
وَإِنْ حَدَّثْتُكَ النَّفْسُ أَنَّكَ قَادِرٌ
عَلَى مَا حَوَتْ أَيْدَى الرُّجَالِ فَكَذَّبْ

منى

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : مَا أَحْسَنَ مَا تَمْنَى « مَارِسِيَال » ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وَمَاذَا تَمْنَى ؟

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ . « تَمْنَى ثُرُوءًا لَا تَكْسِبُ بِالْكَدِّ ، وَإِنَّمَا تَكْسِبُ بِالْمِيرَاثِ ، وَأَرْضًا لَا تُكَذِبُ أَمْلَ صَاحِبِهَا وَلَا عَمَلَهُ ، وَدَارًا عَامِرَةً لَا تَحْبُو نَارَهَا ، وَرَاحَةً مِنَ الْخُصُومَةِ أَمَامَ الْقَضَاءِ ، وَقَلِيلًا مِنْ زِيَارَةِ أَصْحَابِ السُّلْطَانِ ، وَنَفْسًا هَادِئَةً مُطْمَئِنَّةً ، وَجَسَدًا يَجْمَعُ الْقُوَّةَ وَالصَّحَّةَ إِلَى الظَّرْفِ وَالنَّشَاطِ ، وَصِرَاحَةً قَوَامَهَا حَسَنُ الْأَدَبِ ، وَصَدِيقًا أَكْفَاءَ وَضِيفًا أَسْمَاحًا ، وَمَائِدَةً أُنِيقَةً فِي غَيْرِ تَكْلَفٍ ، وَلَيْلَالِي لَا سَكْرَ فِيهَا وَلَا هَمٍّ ، وَزَوْجًا مُحْصَنَةً

لا تغرق في الحياء ، ونوماً يختصر ظلمة الليل ، واطمئناناً إلى الحال التي
هو عليها دون طموح إلى حال أخرى ، وأمناً من آخر الدنيا دون تعجل له .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كان « مارسيل » أندلسي المنشأ ؛ ولقد
أحسن التمني ، ولكنه لم يسمع قول مواطنه العربي بعد موته بقر ون طوال :
وَإِذَا انْتَبَتْ نَحْوِي الْمُنَى لَأَنَّا هَا
وَقَفَ الزَّمَانُ لَهَا هُنَاكَ فَعَاقَهَا

نصح

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : بين لي بعض ما يتعرض له الشباب من
موبقات النفس .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إياك واليأس من نفسك فإنه يسقط الهمة ،
وإياك واليأس من وطنك فإنه يهدر الكرامة ، وإياك واليأس من روح الله
فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : زدني .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إياك والرضا عن نفسك فإنه يضطرك
إلى الخمول ، وإياك والعجب فإنه يورطك في الحقد ، وإياك والغرور
فإنه يظهر للناس كلهم نقائصك كلها ولا يخفيها إلا عليك . واذكر دائماً قول المتنبي
وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ

رَأَى غَيْرَهُ فِيهِ مَا لَا يَرَى

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ . زدني .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إياك والعناء في جمع المال فإنه خسة ، وإياك والحرص على كثر المال فإنه ذلة ، وإياك والإحجام عن بذل المال في وجوه الخير فإنه ضعة . واقرأ قول الله عز وجل :

« الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جُاهَهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا تُنْفِقُونَ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ » .

ذلة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألا ترى إلى فلان يتعالى على مرؤسيه كأنه السيد العظيم ، ويتضاءل لرئيسه كأنه العبد الدليل .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لو ملك هذا الرجل أمر نفسه لما تعالى على قوم ولما تضاءل لآخرين ، وإنما هو رجل فقد نفسه فهو يلتمسها في العلو الكاذب حيناً وفي التضاؤل الصادق حيناً آخر ، فهو عبد ذليل في الحالين ، وإنما السيد الجدير بالسيادة هو الذي لا يطغى إن استغنى ، ولا يذل إن احتاج .

خسار

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى قوم أرسلوا أنفسهم على سجيئتها ، فأبرموا الأمر ، وأحكموا القضية ، ورضوا عن أنفسهم ، ورضى

الناس عنهم . ثم بدا لغيرهم فنقضوا ما أبرموا ، وفرّقوا ما أحكموا ، وسخطوا على أنفسهم ، وسخط الناس عليهم .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أولئك قوم باعوا مروءتهم بثمان بنحس دراهم معدودة أو دنانير معدودة . واقرأ إن شئت قول الله عز وجل : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .

نفور

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لو لقيت مرة واحدة هؤلاء النفّر فإنهم حراس على أن يروك .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أراك نسيت قول الشاعر القديم :

حىّ الحمول بجانب الرمل
إذ لا يلائم شكلها شكلى

هجر

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لو رضيت عن فلان فإنه نادى على ما فرط منه .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إليك عنى واذكر قول معن بن أوس :

إذا انصرفت نفسى عن الشئ لم تكذب
إليه بوجه آخر الدهر تقبل

صد

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى فلان لج في هجر الناس
لا يفرق بين عدو وصديق .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : الغمرات ثم بنجلينه . واذكر قول
البحثري :

لجَّ هذا الحبيب في هجرانه
ومضى والصدود أكبر شانه

روغان

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما أعذب حديث فلان حين يقول
وما أقل غناؤه حين يعمل .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي :

يُعْطِيكَ مِنْ طَرْفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً
وَيُرْوِغُ مِنْكَ كَمَا يُرْوِغُ الثَّعْلَبُ

أهبة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى فلان أقبل متأهباً للحرب قد
أبدى ما يرهب من ظفر وناب .
جنة الشوك

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : نسي أن لخصمه أظفاراً وأنياباً . واذكر قول الشاعر القديم :

جاء شقيقٌ عارضاً رمحه

إنَّ بنى عمك فيهم رماح

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما أكثر ما جمع فلان حوله للحرب !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هيات ، لن يكثر خصمه بمن جميع له . واذكر بيت الحماسة :

ومن ربط الجحاش فإن فينا

قنا سلباً وأفراساً حسناً

نزاهة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لقد ضرب فلان أبرع المثل في الذود عن نزاهة الحكم والتعفف عن فتاته ومنافعه العاجلة ، والحرص الاستقامة في القول والعمل ، وعلى نقاء اليد والقلب والضمير .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى وعلى ثغره ابتسامة مره حائرة لا تريد أن تستقر : نعم ، بعد أن ملأ يديه بالمغانم والأسلاب .

تعفف

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى فلان قد اتخذ لنفسه في هذه الأيام مكان أبي ذر أيام عثمان فهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ،

ويبغض الأثرة ، ويحبب الإيثار ، ويحذر من الأخذ من مال الدولة بغير الحق .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى وهو مطروق لا يكاد يرفع رأسه : لو بقي له مطعم لآثر الصمت .

تخرج

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما رأيت كاليوم تخرجاً في تدبير أمور الدولة .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وما ذاك ؟

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألم تسمع إلى فلان يلح في ألا يتولى مناصب الدولة إلا القادرون عليها الناهضون بأعبائها الذين لا يمسون الوزراء من قريب أو من بعيد .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى وهو يلوى وجهه ويرفع كتفيه : بعد أن أرضى ذوى قرابته على حساب الدولة بما ليسوا له أهلاً .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إني لأرى فيك مراة لم أعرفها منك قبل اليوم .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إذا بلغ السيل الزبا ، وجاوز الحزام الطيبين ، وتجاوز كل شيء قدره ، وكل إنسان غايته ، كان خليقاً بالرجل الحر الكريم أن يطلق حلاوة اللسان ، وعذوبة النفس إلى غير رجعة .

بعد فوات الوقت

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لو سمعت إلى فلان وهو يحذر من عواقب المحاباة لامتلاً قلبك به إعجاباً !
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لو قال ذلك أمس لصدقناه .

قصد

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لقد خنقتني العبرة حين سمعت فلاناً يأمر بالقصد في أموال الدولة ومناصبها .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : صدق الله العظيم :
« أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .
وهم التلميذ الفتي أن يراجع أستاذه فيما سمع منه .
ولكن الشيخ كان قد استوى ودخل في صلاة العصر ، فلم يسع لتلميذه إلا أن يستوى قائماً وراءه ويدخل فيما دخل فيه من الصلاة .

كرامة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما أكثر ما كان فلان يعتز بكرامته وما أسرع ما استجاب لما لا يلائم هذه الكرامة !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فإن من الكرامة ما يستجيب للمال
كما يستجيب الحديد لدعاء المغناطيس .

عزاء

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما بال فلان قلب لصديقه القديم ظهر
المجن ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لم يجد عنده مطمعا فتعزى عن اليأس
بما ترى . واقرأ إن شئت قول الله عز وجل :
« وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا ،
وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ » .

مكر

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى فلان يمكر برئيسه ويؤلب عليه ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أراد أن يبلغ رضا رئيسه بالملق فلما أعياه
ذلك أزمع أن يبلغ غضب رئيسه بالكيد .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وتراه يبلغ من ذلك ما أراد .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هيهات إلا أن يكون الرئيس عبداً مثله .

إهداء

قال أحد الكتاب لبعض قرائه : أى الأدب أحب إليك ؟ قال : الذى يرد على صدى من إصداء نفسى . قال الكاتب : فإن كان هذا الصدى بغيضاً ؟

قال القارئ : إن كان بغيضاً علمت أن الكتاب لم يسجل صوت نفسى وإنما سجل صوت نفس أخرى ألتمسها فيمن حولي من الناس .

إهداء

قال أحد الكتاب لبعض قرائه : أى الكتب أحب إليك : قال الذى يعرض على صورة نفسى . قال الكاتب : فإن عرض عليك صورة قبيحة ؟

قال القارئ : إذا أعلم أنه لم يرد إلى تصويرى ، وإنما أراد إلى تصوير غيرى من الناس .

إهداء

قال أحد الأدباء لبعض أصدقائه : ما أشد حبك للهجاء ، وما أكثر قراءتك لما ينشأ فيه من شعر ونثر .

قال الصديق : لأننى أجد فى ذلك شفاء لبعض ما فى نفسى من ازدراء الناس .

هجاء

قال أحد الأدباء لبعض أصدقائه : ما أشد عكوفك على قراءة الهجاء .
قال الصديق : فإنك تعلم حرصى على أن أتتبع مثالب الناس فالهجاء يعيننى من ذلك على ما أريد .

هجاء

قال أحد الأدباء لبعض أصدقائه . إنك لتكثر قراءة الهجاء .
قال الصديق : أتتبع بذلك عيوب نفسى حين ألتمسها فى نفوس الناس .

هجاء

قال أحد الأدباء لبعض أصدقائه : ما أكثر ما تنفى على هذا الكتاب الذى لا يشتمل إلا هجاء !
قال الصديق : فإنك تعلم أنه يلائم طبعى .

نقد

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أَيْ قَرَأْتُكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ !
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هذا الذي يقرأ مخلصاً ، وينقد ناصحاً ،
 ويعلن الرأي صريحاً ، لا يصانع فيه ، ولا يلتوى به .
 قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ومن لك بالقارئ الذي تجمع له هذه
 الخصال ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هبه إحدى المنى التي يقول فيها الشاعر
 القديم :

مَنْ إِنْ تَكُنْ حَقًّا تَكُنْ أَحْسَنَ الْمَنَى
 وَإِلَّا فَقَدْ عَشْنَا بِهَا زَمَنًا رَغَدًا

هجاء

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما أكثر ما قال فلان للناس الخير
 فيما مضى ، وما أكثر ما يقول لهم من الشر الآن !
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : سقاهم من أدبه صفواً وعفواً حتى انتهى
 بهم إلى قعر الدن فهو يسقيهم حثالة نفسه ، وأجدر بهم أن يعافوا ما يقدم
 إليهم من شراب .

هجاء

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : قد كان أدب فلان عذباً سائغاً ، فأصبح مرّاً لا يطاق .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : ما زال يحلب لهم ضرع الأدب حتى استنفد لبنه ، فهو لا يحلب الآن إلا دماً .

رياضة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أى الرياضة أحب إليك ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : المشى .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : إنما أردت رياضة النفس .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : دفعها إلى ما تكره وصدّها عما تحب ، ذلك أحرى أن يعيننى على احتمال مخالطة الأهل ، ومعاشرة الأصدقاء ، ومعاملة الناس .

سيرة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما خير سيرة يسيرها الرجل الحازم

فى أبنائه ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : يكلؤهم بعنايته ، ويشملهم برعايته ، ويحوطهم بعطفه وحنانه ، ولا ينتظر منهم بعد ذلك إلا عقوقاً . ذلك أجدر أن يسروه أحياناً ، ولا يسوءوه أبداً .

إهداء

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أى المودة أجدر أن تبقى على حوادث الدهر ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هذه هى التى تخلقها الأثرة لا الإيثار ، ولم تنشئها الحوادث التى تحدث ، والنوائب التى تنوب ، ولم تتصل بالمنافع القريبة أو البعيدة . وإنما قامت على توافق العقول ، وتعاطف القلوب ، واستحييت أن يتحدث عنها أصحابها حين يلتقون .

تلون

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألا ترى إلى فلان يبيض قوله مصباحاً ، ويسوده ممسياً ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وما تنكر من ذلك ! إنه يستعير بياض الصبح لأحد قوله ، وسواد الليل لقوله الآخر ؟

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فأى لونه نصدق !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : صدقهما جميعاً إن شئت وكذبهما جميعاً إن أحببت ، فهو صادق كاذب معاً ؟

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لقد عدت إلى الإلغاز في حديثك وقد كنت تركته دهرًا ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هو صادق في قوله لأنه يلتمس منفعة بهما ، وهو كاذب في قوله لأنه لم يردّ بهما رضا الله ولا نصّح الناس .

تجارة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألا ترى إلى فلان يستبيح لنفسه الكذب مصباحًا ومسيًا كما يستبيح الماء الذي يشربه ، والهواء الذي يتنسمه ؟
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : إنه يشتري بكذبه لذة السلطان ؟
 قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وأي سلطان هذا الذي يشتري بالكذب ؟
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : سلطانٌ بخسٌ يشتري بثمانٍ بخس .

كذب

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما أحب الكذب إلى فلان !
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لو أدبه الشعب حين كذب كذبه الأولى لما عاد إلى الكذب مرةً أخرى ؟

فرصة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى اضطراب أمور الناس منذ أبحرَ فلان ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : غاب النسر فاستنسر البغاث أو كما تقول العامة : غاب السبع فلعبت الضباع .

مصانعة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى فلان همَّ أن يكون رجلاً ثم استكان ؟ !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : ذكر قول زهير :
وَمَنْ لَمْ يُصَانَعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ
يُضْرَسَ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأَ بِمَنْسَمٍ

فطرة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى فلان لم يكد يزأر زئير الأسد حتى ماء مواء القط .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لأنه لم يولد أسداً ، وإنما وُلِدَ قطاً .

مهارة

- قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لم يكذ فلان يغيب حتى اضطرب كل شيء .
- قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : أمر دُبر بليل .
- قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أَوْضَحْ فَإِنِّي لَمْ أَفْهَمْ عَنْكَ !
- قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : أَرَادَ أَنْ تَظْهَرَ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ فَيَصْغُبِ الْإِسْتِغْنَاءَ عَنْهُ .

طموح

- قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما بال فلان يؤلب على الحكومة وهو لها صديق .
- قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : مَلَّ مَكَانَ الصَّدِيقِ وَطَمَعَ فِي مَكَانِ الزَّمِيلِ .
- قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وتراه يبلغ ما يريد !
- قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وَلَمْ لَا ؟ ! إِنْ يَسْرِقُ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ .

طمع

قال الطالب الفنى لأستاذه الشيخ : ما بال فلان لا يريح ولا يستريح ؟
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفنى : ملاً خزائنه من المال ويريد أن يملأ
 يديه من السلطان .

عداء

قال الطالب الفنى لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى فلان يصبح إخوانه بالعداء
 كلما أشرقت الشمس .
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفنى : لم ينصفوه لأنهم لم يخلطوه بأنفسهم .
 واذكر إن شئت قول الشاعر القديم :
 إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته
 على طرف الهجران إن كان يعقل
 ويركب حد السيف من أن تضيئه
 إذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل

رقص

قال الطالب الفنى لأستاذه الشيخ : لم يكد فلان يدبر حتى أقبل .
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفنى : لم ينس الرقص الذى تعلمه فى باريس .

تقلب

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما أكثر ما يتقلب فلان بين الرضا والغضب !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : ألحّ عليه قول البحترى :
أغتدى راضيا وقد بتّ غضبا
ن وأمسى مولى وأصبح عبدا

سرعة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ لم يكده فلان يغضب حتى رضى .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : ذكر قول بشار :
صدت بخدّ وجلت عن خدّ
ثم انثنت كالنفس المرتد

تجنى

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما أكثر ما يتجنى فلان على أصدقائه فيؤذيهم ويؤذي نفسه !
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : أسرفوا في الثناء عليه فظن أنهم صادقون .
واذكر إن شئت قول شوقي :
خدعوها بقولهم حسناء ، والغواني يغرهن الثناء

أفول

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى ذلك النجم لم يكد يشرق حتى أفل .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : كان يستمد النور من غيره فلما التوى عنه مصدر النور عاد إلى إظلامه القديم .

جزاء

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : رأيت كأنى أودع الأرض بذراً طيباً فلا يكاد يستقر فيها حتى ينبت منظراً بغيضاً !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : تحسن إلى قوم ثم لا تلقى منهم إلا شراً .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وإذن !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وإذن فاعمل الخير واذكر أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

كفر

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أى الناس أجدر أن يكفر النعمة ويحسد المعروف .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ذلك الذى يجعل رأسه وعاء للعلم دون أن يجد نور المعرفة إلى قلبه سبيلاً .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لم أفهم عنك !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إن مثل العلم الذى تعيه العقول ولا تستضىء به القلوب مثل الأسفار التى يحملها الحمار . وقرأ إن شئت قول الله عز وجل : « فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

تذكار

أملت فحيت ، ثم قامت فودعت

فلما همت أن تنصرف ألفت فى يدي شيئاً صغيراً ، وتولت وهى تقول :
اجعل هذا وقاء لك من شر من تحسن إليه .
ونظرت فإذا هو مصحف دقيق .

لك العهد يا بنتى ألا يفارقنى مصحفك هذا الدقيق حياً وميتاً ، ولك
العهد ألا ألتخذه وقاء من أحد ، ولا وقاء من شيء ، وإنما أحمله لأن حملة
محبب إلى .

بطر

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألا ترى إلى قوم يمكرون برئيسهم ،
ويطلقون فيه ألسنتهم .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : ستموا النعمة واشتاقوا إلى النعمة .
 قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وترى رئيسهم يذيقهم من الشر ما يريدون .
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هيهات ، واذكر قوماً جعلهم الله عبرة
 لأولى الأبصار ، لأنهم خربوا بيوتهم بأيديهم .

فتنة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألا ترى إلى فلان يبر بذوى رحمه على
 حساب الدولة .
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : نجم يريد الأفول وما أراه يأفل حتى تأفل
 معه نجوم أخرى .
 قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : فإن النجوم الأخرى ماضية في سبيلها
 لم تنحرف عن الجادة .
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : فاقروا إن شئت قول الله عز وجل :
 « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

وعد

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما زال فلان يعدنى ويمنى حتى ظننت
 أنه سيعطينى القمر . فلما حان وقت الوفاء لم أجده عنده إلا سراباً .
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لا تلمه وقد أعطاك ما يملك وهو لا يملك

إلا الوعد ، ولكن لم نفسك على تصديقه . وقرأ إن شئت قول الله عز وجل :
« يعدمهم ويمنيهم ، وما يعدمهم الشيطان إلا غروراً » .

عبء

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لم يجلب فلان لزملائه منذ شاركهم
إلا شراً .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هو كما قال الله عز وجل : « كلُّ
على مولاه أينما يوجهه لا يأتى بخير » .

وقاء

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما حرص زملاء فلان عليه وهو يكلفهم
من الشطط ما لا يطيقون .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : إنما يتقون به عين الحنود .

تعالى

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى فلان ثانی عطفه شامخاً
بأنفه لا يكلم الناس إلا وحيّاً ، ولا ينظر إليهم إلا شذراً .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : أنف في السماء واست في الماء .

إصلاح

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما أكثر ما يذكر قومنا الإصلاح وما أقل ما يصلحون !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : إنما يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، ولو قد آمنت قلوبهم بالإصلاح حقاً لعملوا أكثر مما يقولون .

نور

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما أكثر ما ينتقص الناس فلاناً دون أن يبلغوا منه شيئاً !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي :

« يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » .

ثبات

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما أكثر ما تألب الناس على فلان فهاجموا جهره ، وكادوا له سرّاً ، وأغروا به ألسنتهم وأقلامهم ، وهو ثابت في مكانه لا يزول !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : إنما مثلهم ومثله قول الشاعر القديم :

كَنَاطِيحَ صَخْرَةٍ يَوْمًا لِيُوْهِنَهَا فَلَمْ يَضُرَّهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الْوَعْلُ

لوم

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما رأيك تذكر قومنا إلا لائماً لهم ناعياً عليهم .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي :
وَلَوْ أَنَّ قَوْمِي أَنْطَقَتْنِي رِمَاحُهُمْ نَطَقْتُ وَلَكِنَّ الرِّمَاحَ أَجَرَتْ

سخط

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : متى ترضى عن قومك !
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : حين أراهم يسخطون على أنفسهم .

عقل

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى قومنا قد قلبوا لقادتهم وزعمائهم
ظهر المجن .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لأنهم أخذوا يعقلون .

تبصر

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى قومنا لا ينقادون لسااستهم
في سر كعهدهم منذ حين ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : جعلوا يصبحون رجالا .

إخلاص

قال الطالب الفقى لأستاذة الشيخ : متى يخلص الساسة فى خدمة الشعب
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقى : حين ينسون أنفسهم .

حسد

قال الطالب الفقى لأستاذة الشيخ : ألا ترى إلى فلان ما ينفك يثير الصعاب ،
ويبث العقاب بين يدى زملائه العاملين ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقى : لم ييسره الله للخير ، فهو يأبى أن يجرى
الله الخير على يدى غيره .

زهو

قال الطالب الفقى لأستاذة الشيخ : لم يصنع فلان شيئاً منذ ارتقى إلى منصبه ،
وهو أكثر الناس حديثاً عن نفسه مصباحاً وممسياً .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقى : إنما هو كما قال أبو العلاء فى بعض معاصريه :
« رَحاً تَطْحَنُ قَرُونَا »

رقص

قال الطالب الفقى لأستاذة الشيخ : ألم تر إلى الذين يكتبون مذكراتهم
السياسية ويضيفون فيها إلى الموتى من الأقوال والأعمال ما يمنعهم الموت من

أن ينكروه أو يجادلوا فيه ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هؤلاء القوم يستحبون الرقص على جثث الموتى ، فدعهم يخوضوا ويلعبوا حتى يأتى يومهم الذى يوعدون .

صدقة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وإنى أقرأ فى كتاب الله هذه الآية البارعة الرائعة بما فيها من هذا التمثيل القريب البعيد : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسعٌ عليم » . فهلا أظهرتني على ما وراء هذا الجمال الفنى الرفيع من أمر الذين ؟ ١

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : فإن الرواة يتحدثون بأنها أنزلت بشأن رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ندب النبي أصحابه للجهاد بأموالهم وأنفسهم فى غزوة (تبوك) فأما أحد هذين الرجلين فهو عبد الرحمن بن عوف رحمه الله . قسم ماله نصفين أمسك النصف على نفسه وأهله وأقبل بالنصف الآخر على النبي صلى الله عليه وسلم فأقرضه الله قرضاً حسناً . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت . وأما الآخر فعثمان بن عفان رضى الله عنه جهز للحرب من لأجهاز له من فقراء المسلمين فأنزل الله هذه الآية ، يبنى الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله عن نية خالصة وعزيمة صادقة وبراءة من المن والأذى بأنه يضاعف لهم نفقاتهم فيما يمنحهم من ثواب الآخرة أضعافاً كثيرة كهذه

الحبة التي تلقى في الأرض فتنبت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة .
وكل واحدة من هذا الحب قد تلقى في الأرض فتنبت سبع سنابل في كل
سنبله مائة حبة ، والله يضاعف الخير لمن يشاء ، تسع قدرته ورحمته
ذلك والله يرزق الناس من نعم الدنيا وثواب الآخرة إن أراد بغير
حساب .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لو صدق الموسرون وعد الله وخافوا وعيده
لآثروا إقراض الله على إقراض الناس .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : فإنهم يرون بعيونهم ويأخذون بأيديهم
ويحززون في خزائهم ما تغل عليهم قروضهم في المصارف وفي أسواق المال
ويمنعهم ضعف النفوس وخور القلوب وهذا الشك الذي يفسد العقول
أن يروا ما أعد الله للمحسنين من ثواب . واقرأ إن شئت قول الله عز وجل :
« من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم
يصلها مذموماً مدحوراً ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن
فأولئك كان سعيهم مشكوراً . كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان
عطاء ربك محظوراً » .

صدقة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : إني أقرأ في كتاب الله هذه الآية الكريمة
التي تروع بما فيها من الإيجاز والصفاء : « ويسألونك ماذا ينفقون قل
العفو . . . » . فهل فسرته لي وفقهتني في معناها ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فإن الناس كانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عما ينبغي أن ينفقوا من أموالهم براً بالبائسين ومعونة للمحتاجين . فأنبأهم الله بأن فيما زاد على حاجاتهم وحاجات من يعولون من الأهل والولد سعة لهذا البر ومادة لهذه المعونة وإنما أراد إلى تأديبهم بما ينبغي أن يرعوا به حق أنفسهم وحق ذوى قرباهم وحق نظرائهم من الناس . وأراد قبل كل شيء أن يحملهم على الرفق بأنفسهم وبمن يعولون وكانوا قد تأثروا بالدعوة الإسلامية واندفعوا إلى البر وأقبلوا عليه حتى هم كثير منهم أن يشقوا على أنفسهم ويقتروا على أبنائهم وأزواجهم فدعاهم الله ورسوله إلى أن يرعوا حقوقهم أولاً وحقوق غيرهم من الناس بعد ذلك . وقد أقبل رجل على النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال له : عندي دينار . قال : أنفقه على نفسك . قال الرجل : عندي غيره . قال : أنفقه على أهلك . قال الرجل : عندي غيره . قال : أنفقه على ولدك . قال الرجل : عندي غيره . قال النبي صلى الله عليه وسلم : فأنت أبصر . لم يأمره أن يتصدق به ، ولم ينه عن هذه الصدقة وإنما ترك له أن ينفقه عن بصيرة في أمر دينه ودنياه . وأقبل رجل آخر ذات يوم على النبي صلى الله عليه وسلم ومعه بيضة من ذهب أصابها في بعض المعادن . قال : خذها مني صدقة فقد أصبحت لا أملك غيرها فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، وجاءه الرجل من ركنه الأيمن فأعاد عليه القول فأعرض عنه النبي مرة ثانية ، وأعاد الرجل القول فأعرض عنه النبي مرة ثالثة . وأعاد الرجل القول للمرة الرابعة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم في لهجة المغضب : هاتها . فلما دفعها الرجل إليه حذفه بها حذفاً لو أصابته لشجته ثم قال : « يأتى أحدكم بماله كله يتصدق به ثم

يجلس يتكفف الناس» .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذن يكفف من غلو أصحابه في الصدقة ويخفف من إمعانهم في البر وإجهادهم لأنفسهم .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كان يرفق بهم لأنهم لم يكونوا يرفقون بأنفسهم .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فأين نحن من أولئك الناس ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : نحن في المنزلة التي لا يرفق الرجل فيها بنفسه ولا بأهله ولا بولده ولا بغيرهم من الناس لأنه يؤثر المال على الرفق والبر والإحسان جميعاً ، وصدق الله العظيم حين قال : « زُينَ للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لو صدق الناس وعسد الله وخافوا وعبيده لما آثروا متاع الدنيا على متاع الآخرة ولما كتزوا الذهب والفضة في خزائهم أكداً والناس من حولهم يصومون ثم لا يجدون ما يخرجون به من الصوم .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هو ذاك ، واقرأ إن شئت قول الله عز وجل : « الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنتم تكثرون » .

فهرس

صفحة		صفحة	
٣٨	معارضة	٧	تقدمة
٣٩	وصف	٢١	دعاء
٣٩	عقوق	٢١	فيض
٤٠	فن	٢٢	خرية
٤١	خصام	٢٣	حرية
٤٢	موعظة	٢٣	أدب
٤٢	تجن	٢٤	حرية
٤٣	نعمة مضیعة	٢٤	وصول
٤٤	غرور	٢٥	ضمائر
٤٥	غرور	٢٧	جمود
٤٦	وجوم	٢٨	حماما رهان
٤٧	تفليل	٢٩	حلة
٤٧	قطط	٢٩	وقار
٤٨	قصور	٣٠	ذاكرة
٤٨	تكریم	٣١	إنشاء
٤٨	غیبه	٣٢	إنشاء
٤٩	ظلم	٣٣	إنشاء
٥٠	رجوع	٣٤	إنخوان
٥٠	رعية	٣٥	ذوق
٥٢	رعية	٣٦	معارضة
٥٢	رمز	٣٧	معارضة
٥٣	غيرة	٣٨	معارضة

صفحة	صفحة
٧٠	مجنون ٥٣
٧١	تلطف ٥٤
٧١	هجرة ٥٤
٧٢	هجرة ٥٥
٧٢	تصوير ٥٦
٧٣	رقى ٥٧
٧٤	رقى ٥٨
٧٥	تعريض ٥٩
٧٦	ضحك ٥٩
٧٦	انتصار ٦٠
٧٧	ذوق ٦١
٧٧	رفق ٦٢
٧٨	إيثار ٦٢
٧٨	نفع ٦٣
٧٨	كفاية ٦٣
٧٩	رقى ٦٤
٨٠	رسالة ٦٤
٨٠	جحود ٦٥
٨١	استخارة ٦٥
٨١	معبد ٦٦
٨٢	وصف ٦٧
٨٣	هجاء ٦٧
٨٤	رقابة ٦٧
٨٤	خادم ٦٨
٨٥	وعود ٦٨
٨٦	نزاهة ٦٩
٨٦	تخليط ٦٩
٧٠	منفعة ٥٣
٧١	أخلاق ٥٤
٧١	كساد ٥٤
٧٢	عفة ٥٥
٧٢	ثعالب ٥٦
٧٣	فرار ٥٧
٧٤	كيد ٥٨
٧٥	صفح ٥٩
٧٦	سخرية ٥٩
٧٦	تقدير ٦٠
٧٧	ابتسام ٦١
٧٧	تملق ٦٢
٧٨	كذب ٦٢
٧٨	مروءة ٦٣
٧٨	نفاق ٦٣
٧٩	نفاق ٦٤
٨٠	نفاق ٦٤
٨٠	حياء ٦٥
٨١	إشاعات ٦٥
٨١	نهضة ٦٦
٨٢	حقوق ٦٧
٨٣	صدق ٦٧
٨٤	صلة ٦٧
٨٤	ضعة ٦٨
٨٥	نكسة ٦٨
٨٦	تحكم ٦٩
٨٦	ابتسام ٦٩

صفحة		صفحة
١٠٢	جاه	٨٧ ضحك
١٠٢	سؤال	٨٨ جلاء
١٠٣	قرض	٨٨ توبة
١٠٤	موسيقى	٨٩ توبة
١٠٤	سعادة	٨٩ فن
١٠٥	عجز	٩٠ كساء
١٠٥	زيارة	٩٠ فصاحة
١٠٦	تاريخ	٩٠ فصاحة
١٠٦	نفوس	٩١ أعجوبة
١٠٨	صمت	٩١ تملق
١٠٩	ثقة	٩٢ نقمة
١٠٩	منى	٩٣ عزة
١١٠	نصح	٩٣ توحيد
١١١	ذلة	٩٤ جبن
١١١	خسار	٩٤ ملق
١١٢	نفور	٩٥ نحو
١١٢	هجر	٩٥ مثل
١١٣	صد	٩٦ مثل
١١٣	روغان	٩٧ مبدأ
١١٣	أهبة	٩٧ مبدأ
١١٤	نزاهة	٩٧ زهد
١١٤	تعفف	٩٨ سلطان
١١٥	تخرج	٩٨ وعظ
١١٦	بعد فوات الوقت	٩٩ زهد
١١٦	قصد	١٠٠ رافة
١١٦	كرامة	١٠١ عطف
١١٧	عزاء	١٠١ زهد

صفحة	صفحة
١٢٧	١١٧ مكر
١٢٨	١١٨ إهداء
١٢٨	١١٨ إهداء
١٢٨	١١٩ هجاء
١٢٩	١١٩ هجاء
١٢٩	١٢٠ نقد
١٣٠	١٢٠ هجاء
١٣٠	١٢١ هجاء
١٣١	١٢١ رياضة
١٣١	١٢١ سيرة
١٣١	١٢٢ إهداء
١٣٢	١٢٢ تلون
١٣٢	١٢٣ تجارة
١٣٢	١٢٣ كذب
١٣٣	١٢٤ فرصة
١٣٣	١٢٤ مصانعة
١٣٣	١٢٤ فطرة
١٣٤	١٢٥ مهارة
١٣٤	١٢٥ طموح
١٣٤	١٢٦ طمع
١٣٤	١٢٦ عداء
١٣٥	١٢٦ رقص
١٣٥	١٢٧ تقلب
١٣٧	١٢٧ سرعة

١٩٨٦ / ٢٧٨١	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-١٦٢٥-٩	الترقيم الدولي

١ / ٨٦ / ١٠٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

00 / 62311